زوايا معتّمة

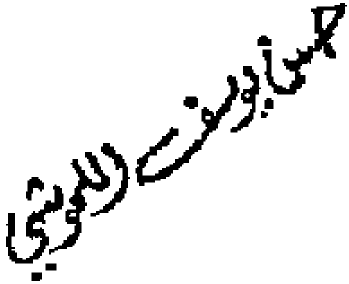
قصص



حسن ابو يوسف الدويشي
حسن ابو يوسف الدويشي

عبد المجيد يوسف النفزي

مجلس الثقافة العام



زوايـــا معتـَمـــة

حسن أبوسيف الليبي

إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ . د . سليمان صالح الغويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصر الدعيسي

علي الفلاح

هليل البيجو

جابر نور سلطان

محمد عبدالله الترهوني

سالم أحمد الأوجلي

زوايــا معتّــمــة

قصص

عبد المجيد يوسف النفزي

النـاشـر

مـجلـس الـثـقافـة الـعـام

اســـم الكـتاب	زوايا معتمة (قصص)
اســـم المؤلـف	عبد المجيد يوسف النفزي
سـنـة النـشـر	2008 م
رقـــم الإيــداع	74 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الترقيم الدولي	978 - 9959 - 38 - 805 - 6
تـصميم الـغـلاف	علي العباني
لـوحـة الـغـلاف	علي العباني
التنفيذ الفنـي	دار قبـاء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

إهــداء

إلى مرجان..

وإلى كل من كان سببًا أو ساعد على نشر هذا الكتاب

وأخص بالذكر والتنويه

مجلس الثقافة العام بالجماهيرية الليبية

عبد المجيد يوسف

تقديم

يسرنا أن نقدم للقارئ العربي هذه النصوص التي نشر بعضها في الدوريات التونسية وبعضها ينشر لأول مرة.

وسوف يلاحظ فيها تباينا شديدا في لغتها ومواضيعها وسائر ما توسلت به لتطلب مظاهر أدبيتها، هذا التباين راجع إلى ما توخيناه فيها من اختبار لطرائق عددا... زهدا في الرتابة والتكرر وبحثا عما يبدو لنا مبتكرا أو طريفا.

وقد احتوت بعض مراحل هذه القصص على ألفاظ من اللهجة التونسية العامية.

وحرصا على التواصل الذي ننشده بيننا وبين من قد يطلع على نصوصنا ولا يتمكن من فهم المراد فقد ذيلنا النص الذي هذه صفته بنقل لهذه العبارات إلى العربية الفصحى.

المؤلف

E-mail: rosebleue888@yahoo.fr

الحاجة

ضـــجر أســـتاذ العلـــوم من هذه القاعة المظلمة المتصلة بالمخبر وملّ رائحة الفئران البيضاء والكحول والمواد الكيماوية ذات الـــرائحة الـــنافذة وتمنى يوما يأخذ فيه تلاميذه إلى الفضاء الـــشاسع بـــين الحقول الخضراء المنقطة بالأقحوان والخزامى ليلقي درسه هناك، وقدّم دراسة الوسط الطبيعي من موعده لينعم بجولته المشتهاة في هذا الفصل الربيعي.

قفـــز الشبان والشابات أمامه فرحين بترك مقاعد الفصل، وانبـــروا فـــي أحاديث هامسة أو صاخبة وتحلق جماعة حوله وراحوا يسألونه عن حياته الخاصة:

- أســـتاذ هل أنت متزوج؟ ومن أيِّ جهة من البلاد أنت؟ وكم قضيت من سنة في التدريس؟ وكيف تقضي أوقات فراغك؟ ومـــن هـــي الفتاة التي رأيناها في صحبتك؟ وما رأيك في الحـــب؟ هـــل يـــوجد حبّ حسب رأيك.؟ لكن السؤال الذي أربكه فتلجلج في الإجابة هو سؤال أحد الفتيان عن مرتبه ما مقداره وفيم ينفقه.

بيد أنه تظاهر بعدم الاكتراث وأظهر اللامبالاة وذكر كراء المسكن والأكل والملبس وشراء الكتب...وأردف:

- ألا ترى أنها أبواب كافية للامتصاص المرتب كله؟

وسمع اثنتين تتهامسان:

- يقول: إنه ينفق في الملبس وحذاؤه ذاك الرث نادرا ما يغادره.

وخزته في العمق وحقد على القائلة وبيت في نفسه أن يقسو عليها في أول مناسبة ارتكاب هفوة.

ثم وجه اللوم إلى ذاته: إنه يهمل نفسه ويتهاون بمظهره، والنتيجة أن واحدة وقحة تهزأ به ترى ماذا يلبس أبوك أيتها الكلبة؟ ألم أرك في صحبته يوما وهو في أسمال بالية؟ ألم أر أمك تلبس خفا متقوب النعل؟

واستعجلهم ليصل الموقع بسرعة: مقطع حجارة يبرز بوضوح البنية الجيولوجية للصخور الالتوائية وقصْدُه أن يصرف اهتمامهم عن نشر غسيله ولوك سيرته بما لا يريد.

ثم عاد على نفسه بالتقريع لأنه هدم ذلك الحاجز الذي يفصل عادة المدرّسَ عن تلاميذه فيصطنعوا له شيئا من مهابة.

انفصل عن كوكبة التلاميذ وراح يمشي وحيدا متظاهرا بجمع عينات من أعشاب يحتاجها في دروسه وهو يكظم غيظه ويداري حقده وكبته، وشرع التلاميذ في تسلق الربوة حيث مقطع الحجارة واعترضهم في مدخل المقطع جرّار البلدية قد أفرغ النفايات في جانب من المقطع، وبدأ انحداره عائدا إلى المدينة لرفع ما بقي من صفائح وأكياس، وهناك قطيع من الكلاب جاءت تطلب رزقها وتبقر الأكياس السوداء وتفتش في محتوياتها عما يصلح لها تختاره بدقة وعناية معتمدة على قوة الشم التي مُنحت، تفصل الكلاب ما لا يصلح للأكل مثل قطع المعدن وكل سقط صُلب، ترميه بعيدا عن مجال بحثها...

وما لبث أن جاء جماعة من الأطفال محافظهم المدرسية على ظهورهم فوقفوا عند النفايات وقد أخرج أحدهم كيسا والتقط عودا بقر به أحد الأكياس... دنا منه المعلم وسأله:

- ماذا تصنع يا فتى؟

- أبحث عن الخبز اليابس علفا لبقرتنا.

بيّن له ما تحتويه النفايات من جراثيم قاتلة، وأن جلد الإنسان مفتوح على الفضاء... هناك ثقوب صغيرة على سطح

الجلد...قد لا تسمح بدخول فأر... لكنها لا تردّ جرثومة صغيرة عن الدخول.

قال لــه الطفل مجادلا:

- أعرف... تلك الثقب هي المسام.

نظر إليه ثم تركه يائسا والتحق بتلاميذه.

ولم ينته الدرس حتى انحدر الطلاب متمهلين غير راغبين فـي العـودة إلـى الصف وقد لاحت لهم من بعد بناية المعهد بيضاء في إطار من خضرة كأنها ضريح منعزل، ومروا قرب كـيس مـن النفايات فلفت انتباه الأستاذ هيكلُ حقيبة دبلوماسية سمـسونايت، وتمعّن فإذا المقبض جديد والقفلان سليمان وتذكر حقيبـته التـي تحطم قفلها وانفصل مقبضها فأهملها منذ سنتين، ومـنذ ذلك الحين وهو يترصد لها في سوق السقط قطع غيار، لكـنه لم يظفر بضالته. وهاهي ضالته قد اهتدت إليه أو اهتدى إليها... حقا إن لكل أجل كتابا.

نظر فإذا التلاميذ غافلون، داخلون في شأنهم، خائضون في لغـوهم... اقترب في حذر من الهيكل، ركله بقدمه ليبعده أكثر ما يمكـن عـن النفايات... وزاده ركلة أخرى فأدخله في أجمة من الأعـشاب، لكـنه ظل ظاهرا للعيان، ولا شك أنه قد يروق لأحد

الأطفال النابشين فيتخذه ملهاة. انحنى على الأعشاب فاقتلع بعضها وكدسها فوق الهيكل فأخفاه، وجرى منحدرا ليدرك تلاميذه.

انتهـــى درس الصباح وخرج التلاميذ ظهرا من المدرسة الـــواقعة فـــي ظاهـــر البلد عائدين للغداء فشاهدوا أستاذ العلوم يتـــصعد الـــربوة نحو مقطع الحجارة... وخمن بعضهم أنه بقي على الأستاذ جانب من دراسة الجيولوجيا لحصة المساء.

1988

الحذاء

أخذتني سنة من النوم رغم خشونة الحصير وتراكم الناس بعضهم على بعض.. لم يستطع العنبر المحروق والند أن يتغلبا علـــى رائحـــة الجوارب العفنة وعرق العمال الآتين لتوهم من الحظائر. شعرت كما لو كنت أهوي من عل... تمالكت وفتحت عينيّ واستقمت في جلستي ونظرت إلى القاعد بجانبي كان قذرا ورغـــم ذلـــك احتفظ بجوربين عفنين برز منهما قدماه...كانت تتـــبعث مـــنهما رائحة لا تطاق... هممت أن أغير مكاني لكن لا مكان البتة. وهممت أن أطلب منه نزع جوربيه لكني سمعت صـــوتا طاغـــيا يقول: "إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب فقد لغوت".

نظـــرت فـــي ســـاعة معـــصمي لأحـــدد متى بدأ الإمام خطبته...لم أكن واضح الذهن ولا مستريحا وظهري مستند إلى الفراغ والحصير يخزني. وكنت أشعر أن جمجمتي تعجّ بدخان مـــضغوط...وفجـــأة شعرت بسائل دافئ يخترق قميصي ويبدأ سيلانا بطيئا على جلدي.

استبعدت العرق فالحرارة تبددها مروحة الكهرباء... ولم أكـــن قادرا وأنا في ما يشبه الغيبوبة أن أحدد مكان هذا السائل

مـــن جسدي لعلي أتبيّن مصدره، هل هو دمي ينزف من جرح لـــم أشـــعر بـــه؟ هل تبوّل علي أحد الصبيان الذين يصطحبهم آبـــاؤهم يعلمـــونهم الإيمان؟ ثم التوى عنقي ببطء وألم، فبدا لي شـــيخ أدرد قـــد مال رأسه حتى كاد يلامس ظهري وسال لعابه على قميصي.

قمـــت متـــسللا والقميص يلتصق بظهري واتجهت صوب الباب متخطيا رقاب الجالسين ورائحة الجوارب العفنة تشتدّ نفاذا. وصـــلت صـــحن الجامع الواسع حيث تربض الأحذية في سكينة بانـــتظار جوارب أصحابها...وخمنت وأنا أعبر أن هذه الأحذية تشبه مُسوخا من ضفادع حجرية عائدة إلى سحيق الأحقاب.

ذهنـــي لم يكن بعدُ تام الصفاء، هناك على العينين غشاوة مـــن النور المبهر الذي هاجمني فجأة وبقايا بخار يتصاعد من فـــتحات رأسي...رفعت حذائي، وفي انحناءتي شعرت بوضوح بصمغ اللعاب الذي يشد القميص إلى ظهري. وغادرت الجامع.

تخطـــيت الـــباب الكبير وسط أرجل إخطبوط من أذرع المتـــسولين، بعـــضهم نظر إليّ متوسلا ورشقني بعضهم بنظرة حقـــد دفـــين إذ ربمـــا بدوت لـــه من الأثرياء، وتشبث بعضهم بأطـــراف قميصي الطويل المشدود إلى ظهري بالصمغ...كان

همي الأول أن أنزع القميص أو أجدَ من يخلصني منه، ودار ذهني يبحث عن منعطف يخلو من السابلة. انفلت من شبكة الأذرع الممدودة ولفظني الباب في بطحاء واسعة يجلس فيها جماعة من العاطلين والسوقة والنشالين والحمّالين إلى جانبهم عرباتهم اليدوية أو المشدودة إلى ظهور الحمير تجمّع الروث بين أرجلها وحام الذباب له طنين، والكل في لغط وتناد وعبث...فكرت في أحدهم ينزع عني القميص لكن فضلت أن أتفادى بأسرع ما يمكن رائحة روث الدواب... وبقدر ما كنت أبتعد عن المكان كان وعيي المركّز على موقع الصمغ ينتشر في جسدي ويسري كما الروح تدب دبيبا في جسمٍ مواتٍ...شعرت بحذائي يضايقني.

واصلت السير، رائحة الروث تلاحقني وأصوات السوقة تحوم حول جمجمتي والتفتت فإذا صومعة المسجد ما فتئت سامقة تتطاول على البناءات الخسيسة المنتشرة حولها... أمعنت في المضي مبتعدا والحذاء ما فتئ يضايقني... لقد بدأ الوعي يتركز في أصابع قدميّ وينحسر عن بقعة الصمغ. نظرت إلى الأرض...هذا ليس حذائي. توقفت والتفتت... لقد اختفت الصومعة فلا شك أني قطعت شوطا، أنا الآن في ظاهر المدينة...قد يمكن أن أخلع القميص إن استطعت... لكن قد

يفاجئني بعض الفلاحين وهذا مسلكهم... إذن فلأمض إلى الأمام حتى أصل نهر مجردة...هناك يمكن أن أنزع القميص وأستحم... هناك لا حرج من أن يفاجئني الرعاة عاريا ويمكن أن أغوص بالقميص ليتبدد الصمغ.

وفجأة شعرت بدفء ولزوجة في قدميّ... لم أنظر إلى الأرض بل مضيت قدُما أطلب النهر والخلاء،وصدر عن الحذاء صوت يشبه التلمظ... لم أكترث... واصلت طريقي والحذاء الغريب يمضغني.

1988

صفاء

قد يكون حدث خلال الشهور الأخيرة أن وقف أمام المرآة طويلاً...ربما أكثر مما كانت تفعل زوجته..قد يتملى صورته وقد يرفع يديه ويتشمم نفسه تحت صداره الداخلي...لكنه في كل مرة يبعد هواجس تمكنت منه وأرّقته، إنه يستحم كثيرا، أكثر مما تفعل زوجته، ويتعطّر وينظف أسنانه بمعجون رفيع ويقلم أظفاره ويغير ملابسه باستمرار ويحلق ذقنه كل يومين... وهو حريص على كيّ ياقته وسراويله وتلميع حذائه ككل رجل عصري...يقوم بكل ذلك بنفسه...حتى قهوته السوداء وطبق السلطة وغسل تبابينه لا يستعين عليه بأحد.

وإذا تحدث أقنع، وربما سحر وشد إليه الأسماع.

ومع ذلك لم يفهم سلوك زوجته. عبوسة أبدا، سليطة اللسان، مشاكسة، حادة الطبع، ضيقة المزاج، تنتفد وتسخر، وترفع عقيرتها بالاحتجاج أو تلازم الصمت أياما عددا...كل ما يأتيه في نظرها خطل وكل ما يقوله لغو. تطيل السهر أمام التلفاز في الصالة، ثم تلج الغرفة، حيث ينام هو مبكرا.تدخل متأففة متبرّمة

مـــن صوت المذياع متوترة من صفير الإبرة وهو يقلبها فـــي كـــل سمت وراء نغم أو كلمة أو خبر، يتملاها وهي تخلع ملابـــسها علـــى مهل... ثم وهي تندسّ تحت الغطاء الإسفنجي الخفـــيف وتترك الغرفة مضاءة... يقوم هو متثاقلا كاظما غيظه فيغـــرق الغـــرفة في العتمة ويعود متعثرا في أرجل السرير... يتحـــسس جسدها ليسبر مزاجها، فتشتكي من خشونة كفّه ونتوء ركبـــته وحـــدّة أظفاره... يزحف إلى حافة الفراش، ناسجا من طيفها صورة مصححة حبيبة يتعشقها، يعانق طيفا يصنعه وينام على حلم.

وبـــدأ يفقـــد وجـــوده في البيت... أخذ يتنازل في السلم... أضـــحى فـــي البيت برتبة مستشار لا غير، قد يؤخذ برأيه أحيانا لكـــن الأمر ليس بيده... أفهمته بالباء والتاء والجمع والطرح انه أخرق في صرف المرتب، وأنه صفر في التدبير وإدارة الاقتصاد وضغطت عليه وعاقبته وتركت الطبخ... فصار يسلمها المرتب، فـــتعد لـــه وجوه الإنفاق كما تراها هي، وصار يتملقها ليشتري حاجـــته مـــن التـــبغ وصحيفة أسبوعية واحدة... أصبح كل ذلك مألـــوفا لديـــه إلا أن تهجره، بدأت تنام على الديوان في الصالة بدعوى أن النعاس ذهب بها هناك، ثم صارت تتهيأ لذلك وتتكلفه.

واستجمع يوما شجاعته وقال:

- نذهب إلى المحكمة... ليذهب كل في حال سبيله، أنا لم أعد أطيق هذا العيش.

كانت جالسة إلى مائدة التجميل تتزين وهو واقف وراءها نظرت إلى صورته في الزجاج المحرّف، رأت فكه الأسفل في غير موضعه المعتاد، وبدا لها وجهه قد تقوّس في شكل فردة حذاء مقعّرة بفعل الإهمال والشمس... أتمّت زينتها صامتة وامتدت يدها إلى حقيبتها اليدوية ودفعت إليه بورقة نقدية وأمرته أن يشتري حاجته من التبغ.

انطلق... وفي الطريق كان يفكر: أي تبغ يشتري؟ "كواكب" أم "صفاء مبسّمه"؟

1985

تجسيم الوعي

كثـــر الحـــديث فـــي مدينة سكاوندجين عن حل الحكومة للأحزاب.

وحديث الناس كان يتمحور حول تفسير حل الحكومة لهذه الأحـــزاب التـــي كثـــرت وتـــزاحمت حتى ضاقت بها الساحة السياسية على وسعها وصار بعضها يعطل بعضا.

وحديث الناس كان هادئا، فهم بالطبع هادئون جدا، وديعون. وانتهـــى الحديث في المنتديات إلى أن حلّ الحكومة الأحزابَ لـــه ســـبب وجيه، واقتنعوا بأن هذا السبب قد يكون سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعـــيًّا أو ثقافـــيًّا أو سياحيًّا أو فلاحيًّا أو تجاريًّا أو صناعيًّا أو نفـــسيًّا بحتا... إلى غير ذلك من الأسباب الوجيهة الممكنة التي دفعت بحكومة سكاوندجين إلى حل الأحزاب.

لكـــن حديث الناس يجب أن ينتهي منطقيا إلى فعل يجسم الوعي -لا بموجبات هذا القرار- ولكن بكون هذا القرار وجيها ورشيدا ما دامت الحكومة قد اتخذته.

وتناجـــى الناس فيما بينهم وأعلنوا النجوى، فقد قرروا أن يخرجوا في مسيرة حاشدة لتجسيد هذا الوعي، وقررنا بإجماعنا

أن يكـــون منطلقنا من المنتدى السياسي ثم نجوب المدينة ليعلم القاصـــي والداني بهذا الأمر على أن ننتهي أمام قصر الحاكم، فنــسلمه رســالة نعلــن فيها شذبنا للأحزاب وتأييدنا للحكومة وقناعتنا بالقرار.

وبمـــا أننـــي مـــثقف وكاتب صحفي فقد كُلفت بأن أحرّر الــشعارات التـــي سوف تهتف بها الحناجر وتصرخ بها الأفواه حيــنما نحتــشد ونجــوب المدينة، وتكلف آخرون برسم مسار المظاهرة من منطلقها إلى منتهاها.

بــدأ الــناس فـــي الــتوافد على مقر المنتدى في الساعة المحددة، وجلسوا يتحدثون بهدوء وتهامس ويدخنون. وكانوا من حين لآخر ينظرون في معاصمهم ويلقون على الوافدين نظرات حاسبة: كم حشر من البشر؟ ألف؟ ألف وخمسمائة؟ وامتلأ البهو ووقف الناس في الشارع منتظرين انطلاق مسيرة تأييد الحكومة في قرارها حل الأحزاب.

دفع الباب ودخل رجلان.

لم نكن نعرفهما إذ لم يكونا من سكان مدينة سكاوندجين.

كـــان الـــرجل الأول طويلاً، جميلاً، مهيباً، رهيباً، ثاقب البصر ذا شارب أسود عريض، وحاجبين كثيفين متصلين.

وكـــان الرجل الثاني طويلاً، جميلاً، مهيباً، رهيباً، ثاقب البـــصر شرس النظر ذا شارب أحمر عريض وحاجبين كثيفين متصلين.

وقفـــا، فسدّا فتحة الباب بجسميهما العظيمين، وألقيا على الحاضرين نظرات ثاقبة متفحصة.

قال الرجل الثاني:

- هل حررتم النصوص التي سينادَى بها في المسيرة؟

نظـــر الناس إليّ فوقفت بكل جرأة ونظرت إلى زوجتي وإلى صديقاتها وقلت:

- نعم هذه هي الشعارات التي حررتها أنا بنفسي.

ومددت إليه الورقة.

مدّ يدا بطيئة وهو لا يحدّق في الورقة الممدودة إليه ولكن يغوص ببصره الحاد في عينيّ. لم أستطع أن أثبت ونظرت إلى زوجتـــي... أمـــا هو فأخذتْ عيناه تجريان مع السطور ثم رفع بصره إليّ وعاد يقرأ.

أخـــذ مـــن جيب جمازته قلما ضغط علـى أعلاه فخرجت ريـــشته. شطب بعض الشعارات وبحركة سريعة طوى الورقة ومدّ يده بها إليّ وهو ممسكها بين السبابة والوسطى.

هممت بتناول الورقة لكنه سحب يده وقال:

- أنتم مصرّون على تأييد الحكومة بهذه الطريقة؟

التفت إلى زوجتي ثم قالت له:

- نعـــم، نحـــن نـــريد أن نجسّم وعينا بوجاهة حل الحكومة للأحزاب.

قال:

- حسنا.

- ومـــدّ يده بالورقة، ولمّا هممت بأخذها باعد ما بين إصبعيه فسقطت.

انحنيت فالتقطتها واستقمت.

قال الرجل الأول:

- الـــشعارات المـــشطوبة لا يُـــنطق بها، ويُمنع أن تحرروا شعارات أخرى غير التي اطلعنا عليها.

قال الرجل الثاني:

- ولماذا أنتم مصرّون على تأييد الحكومة بالتظاهر في الطريق العام؟

رأيت الناس ساكتين ينظر بعضهم إلى بعض واجمين ونظرتُ إلى زوجتي وزوجات الآخرين ووقفتُ إزاءه منتصب القامة واستندت إلى كرسي وقلت:

- إذا كانت الحكومة....

قاطعني...لم يسمع بقية التبرير وانصرف مع صاحبه.

وخرج المتظاهرون في أثرهما ونشرنا اللافتات القماشية المكتوبة بمداد أزرق.

* * *

في ساعة متأخرة من النوم جاء لزيارتنا في بيتنا الرجل الأول والثاني ومعهما رجل ثالث.

كان الرجل الثالث طويلاً، جميلاً، مهيباً، رهيباً، أنيقاً ثاقب البصر، شرس النظر، ذا شارب أخضر عريض وحاجبين كثيفين متصلين.

حاولت أن أهدئ من روع زوجتي وقلت لها:

- أعـــدي القهوة لهؤلاء السادة وضعي في كل فنجان قطرة أو قطرتين من ماء زهر النارنج، وأحضري أكواب ماء معطر بماء زهر النارنج أيضا أو بالعطرشاء.

قال الرجل الثالث:

- لـــم نأت لنشرب القهوة المعطرة بزهر النارنج عندكم ولكن لتشرب أنت القهوة عندنا، لكن أحذرك، هي مرّة جدا.

قلت:

- حـــسنا، ســـآتي معكم. ولكن هل هناك مانع من أن أحضر معي بعض قطع السكر؟

قال الأول:

- لا تقلق، سوف نتدبر أمرنا هناك. هيا.

قلت:

- وهل يمكن أن تأتي زوجتي معنا لو رغبت في شرب القهوة الشديدة المرارة؟

قال الثاني:

- بل اترك زوجتك مع الأولاد وهيا.

قلت:

- حسنا، لست خائفا، سآتي معكم.

* * *

في المبنى الذي صحبوني إليه وجدنا رجلا رابعا.

كان الرجل الرابع طويلاً، جميلاً، مهيباً، رهيباً، أنيقاً ثاقب البصر، شرس النظر، ذا شارب أبيض عريض وحاجبين كثيفين متصلين.

مددت يدي إليه مصافحا فتجاهلها. قلت:

- حسنا. ودار وراء المكتب دورتين متتاليتين، كان من الواضح أنه يفكر، وقدموا لي كرسيا فشكرتهم. سألني الرجل الرابع بعض الأسئلة... كان يريد أن يتعرّف عليّ وقد دوّن كل ذلك. قلت:

- لمَ؟

ثمّ سألني عن مظاهرة تأييد الحكومة ومن الذي حشد كل ذلـك الجمـع مـن الناس...كان الرجال الأول والثاني والثالث يقفون خلفي وأحياناً يدورون حولي... كانوا هادئين لكنهم أحيانا كانـوا يغضبون وأحيانا أخرى يشتد غضبهم وتتسارع حركتهم مـن حولـي وتـضطرب أعضاؤهم، وأنت تعرف أن الرجل الواقف كثيرا ما يفقد هدوءه عكس الجالس أو المضطجع، لذلك فإنـه إذا غـضب الإنـسان وهو مستلق جلس وإذا كان جالسا قـام.أمـا إذا غـضب وهـو قائم فإن كل جسمه يهتز وترتفع أعضاؤه وتهوي...هذه أمور معروفة.

قال الرجل الأول:

- تعال، لنذهب إلى القاعة الأخرى.

قلت:

- أين توجد القاعة الأخرى؟

قال:

- هيا ستعرف أين هي.

ساعدوني على إدخال قدميّ في الحذاء ثم أسندوني لأقوم من الكرسي فشكرتهم، ثم أمسكني الثاني والثالث لأتمكن من المسير في اتجاه القاعة الأخرى. قلت:

- شكرًا أستطيع أن أعتمد على نفسي، أنتما أرشداني إلى الطريق وأنا أسير بمفردي.

لكن ما إن تركاني حتى تهاويت.

قال الرجل الثاني:

- أرأيت؟ لا بد أن تتوكأ.

كانت قاعة متسعة وفيها تجهيزات كثيرة. ووجدنا على بابها رجلاً خامسًا.

كان الرجل الخامس طويلاً، جميلاً، مهيباً، رهيباً، أنيقًا، ثاقب البصر، شرس النظر، ذا شارب أحمر عريض وحاجبين عريضين متصلين. سألت:

- هل هذه قاعة رياضة؟ إنها شبيهة بالقاعة التي تمارس فيها زوجتي رياضة تخفيف الوزن. لكن زوجتي ليست بدينة، لكنها تريد أن تحافظ على لياقتها.

قالوا:

- نحن نعرف زوجتك.

قدموا لي كرسيا فشكرتهم. قالوا:

- هل تشاهد هذه التجهيزات؟

- قلت طبعا أنا أشاهدها، إنها تشبه التجهيزات الرياضية.

وبدؤوا يسألونني مجددا ويتعرفون علي ويحومون حولي ويشيرون إلى التجهيزات المنتشرة هنا وهناك.

وقالوا:

- ما رأيك بتجريب هذه الآلات الرياضية؟

وقالوا بعد ذلك:

- هل تريد أن تشرب ماء؟ شكرتهم وقلت:

- أريد أن أذهب إلى دورة المياه. قالوا: لا يمكنك أن تذهب إلى المراحيض، ألا ترى أنك لا تستطيع الجلوس وسوف يكون لك بعض الوقت في المساء.

- هل تريد أن تشرب ماء؟ قلت:

- أجـــل وســـوف يكون لي بعض الوقت في المساء لأذهب إلى دورة المياه.

* * *

بعد مدة تناهز الأسبوع أيقظوني في الفجر. قلت:

- سنذهب إلى القاعة الأخرى؟ قالوا:

- يمكنك أن ترحل الآن.

قلت:

- أين؟

قالوا:

- يمكنك أن ترحل إلى بيتك. لقد هاتفنا زوجتك وهي الآن في الخارج بانتظارك.

قلت:

- زوجتي في الخارج بانتظاري؟ قالوا:

- أجل...يمكنك أن ترحل.

ودعتهم واحدا فواحدا وشكرتهم لتمكيني من الالتحاق بزوجتي خارج المبنى.

وجدت زوجتي بالفعل بانتظاري في سيارتنا الصغيرة.. توكأت على أحدهم حتى أخذت زوجتي بيدي، وفتحت بيد واجفة باب السيارة وجلستُ وتأوهتُ. انطلقتْ بنا السيارة. قلت:

- إلى أين؟ أجابت من خلال دموعها:
- إلى البيت طبعا.

صرخت بضعف: ها أنت تبكين الآن في هذه الساعة من الفجر، والباكي لا يرى بوضوح...أنت تريدين قتلنا، ها أنت تنزلين في جميع حفر الطريق لأن أمر السيارة لا يهمك ولا يهمك الارتجاج الذي يخلخلني أقول لك بصراحة أنت لا تحسنين السياقة ولم تحسني السياقة يوما في حياتك...!

توقفي! توقفي الآن أنت لا تبصرين الطريق...سأقود بنفسي.

تـــوقفتْ ونـــزلتْ ودارت حـــول الـــسيارة وفتحت الباب لتـــساعدني علـــى النـــزول.حاولت إخراج ساقي... تأوهت ولم أقدر...تحوّل بكاؤها نحيبا ثم تماسكتْ وهي تقول:

- ابـــق حبيبـــي حيث أنت استرحْ، ها قد توقفت عن البكاء. ومسحتْ دموعها وتصنعتْ ابتسامة وعادت إلى المقود.

2002

الرّكن النيّر

إلى علي الدوعاجي(*)

ذرعت المدينة حتى أُنهكت وأنا محمّل بثلاث إضبارات فيها سبعة عشر مخطوطا هي حصيلة مؤلفاتي التي وضعتها في السنوات العشرين الماضية ولم أجد لها ناشرًا لضيق ذات اليد، وقد عرضتها طوال الأسبوع الفائت على دور النشر المختلفة، الخاصة والحكومية، فكانت النتيجة واحدة النظرَ في عنوان المخطوط وتقليبَ صفحاته على عجل وتصنعَ التأمل ثم الإصداع بِحكم: في غاية القسوة الشكوى من عدم رواج الكتاب الثقافي وعزوفِ الناس عن القراءة وبوار الكتاب ووشك إغلاق دور النشر:

- عندكش كتاب مواز للبرامج الدراسية وإلا كتاب ديني حول أهوال القيامة ووصف الجنة ومقاومة الحسد؟ هذيك

(*) علي الدوعاجي (1909/1949) قاص تونسي على يده عرفت القصة التونسية نضجها المبكر.. له مجموعة بعنوان سهرت منه الليالي وضمنها قصة الركن النير التي اشتغلنا عليها وحولنا موضوعها وصبغناها بلوننا فأضحت متناصا لقصتنا.. وذلك إكراماً لأب القصة التونسية كما يدعوه النقاد.

المواضيع المطلوبة[1].

لمّـــا شارفت نهاية شارع المنجي سليم بالعاصمة انعطفت يميـــنا فـــي نهج زرقون وانخرطت في حركة السوق واختلطت بالـــسابلة وبالباعة العارضين لبضائع مختلفة: ساعاتٍ، مجففاتِ شـــعر أحذيـــة رياضـــية مستوردة تباع بالمزاد العلني... وعن اليمـــين والـــشمال محلاتُ أثاث اللوكانتو باهظة الثمن ثم باعةُ الكتب القديمة وقد قلّ عددهم وتقلص وجودهم.

راودتنـــي فكـــرة عـــرض مخطوطاتي للبيع على قارعة الطـــريق ثم تبينت مدى سخفها، إذ الكتب يجب أن تطبع وتنشر ويعافها القرّاء قبل أن تباع سقطا على الرصيف.

لمّا وصلت إلى مستوى نهج سيدي قادوس رأيت صديقي صاحب البرنس الرّمادي جالسا عند رجل قذر الهيأة يبيع البيض المسلوق. رآني في ذات اللحظة فناداني بإشارة من يده:

- مراد!

انعطفـــت إلـــيه، فقـــدم لـــي علبة كرتون مغلقة وأمرني بالجلـــوس عليها وأمر صاحبه فقشر لي بيضة ورشّ عليها من

---

(1) تلك/ .

الكمّون والملح والفلفل الأكحل وقدمها لي، كنت متعبا وفكرت أن البيضة سوف تعيد إليّ بعض القوة وطلبت بيضة ثانية.

كان صاحب البرنس الرمادي يدخن الشيشة ويمج دخانه في السماء ويتفحّص المارّة ويردّ على من يحييه من أهل نهج زرقون. وقال لي بين قرقرتين:

- وين كنت؟

فرويت له. قال:

- تضيع في وقتك. شوف نهج زرقون، وين هم بيّاعة الكتب القديمة؟ سكروا[1] ومشاو يعملو حاجة أخرى، شوف نهج الدباغين... الكتب المعروضة كلها ما عادش عندها حتى قيمة، ها هو عمّك الزعيم، تتفكر نصبة[2] الكتب متاعو؟ ولى يبيع العضم[3] والهريسة.

قلت:

- المؤسف أن كتبي ما تتباعش لا في نهج زرقون ولا في الدبّاغين لسبب بسيط: أنها موش مطبوعة.

---

(1) أغلقوا / .
(2) معرض صغير لبيع بضاعة ما / .
(3) البيض / .

قـــال وهو يحدّق أرضا في قشور البيض المطروحة مثل نصبة الكتب البالية في نهج الدباغين:

- طـــباعة كـــتاب مـــوش مشكلة... عندك فلوس تطبع اللي تحب... المهم شكون يقرأ؟

قلـــت: أنـــت تخرف...طباعة كتاب موش مشكلة؟ منين الفلوس؟ أمنيتي نطبع كتاب ونراه ولو مطروح في الدباغين.

أردت الانـــصراف فاســـتبقاني... ومـــا لبث أن مجّ كل ما اختزن في جوفه من الدخان الثقيل ولوى الخرطوم على عنق الشيشة والمعسّل لمّا ينته، وقام وجذبني من يدي وقال:

- هيا.

تبعـــته ولا أعلم أنى يسير بي. سرنا باتجاه القرانة. ولما وصلنا إلى مستوى نهج سيدي عبد الله قش انعطف يمينا ودخل في الناس الواردين على سوق الجنس والصادرين منه.

تـــوقفت عن اتّباعه، فأنا لا أختلف البتة إلى المواخير إذ يسوء ظني بالإنسان وينتابني ألم ممض.

ورجـــع إليّ صديقي صاحب البرنس الرمادي وقد حرنتُ مكاني فجعل يدفعني دفعا وهو يقول:

- يا متخلف ! ما تحبّش تطبع كتابك؟

قلت:

- يا أخي سيدي عبد الله قش عندو دار نشر؟

قال وهو ما فتئ يدفعني:

- امشي واسكت، عندكش عشرة آلاف؟

قلت كاذبا:

- ما عنديش.

مال إلى قهرمانة جالسة في الشارع وراء طاولة صغيرة وأمامها كرّاس مفتوح وحولها بعض مقاعد، جلس عليها أشخاص فهمت أنهم منتظرون أدوارهم في الدخول.

سأل صاحب البرنس المرأة:

- وين منية؟

قالت:

- اقعدوا استنوا شويه.

ونظرت إلى المنتظرين... كانوا أناسا محترمين وقد بدت على بعضهم ملامح الوجاهة وكان بعضهم يحمل صحيفة مطوية.

قلـــت فـــي نفسي: هؤلاء قرّاء... وربما كانت نصوصي السابقة التـــي نـــشرتها في تلك الصحيفة قد دخلت هذا النهج وقرئت فيه وربمـــا قرأتها النسوة اللاتي هن الآن في الحجب وراء الأبواب الموصدة.... ترى لو ناقشتني إحداهن في ما كتبت وأكتب.؟

وفـــدَ[1] صـــاحبي من الانتظار فقام وهمس شيئا في أذن القهرمانة فهزت رأسها موافقة ونفحها ورقة نقدية.

وما لبث أن فتح الباب وخرج منه رجل وانغلق الباب من خلفه دون أن يظهر من داخل الغرفة شيء، وقام أحد المنتظرين أظـــنه صاحبَ الدولة يروم الدخول فنهرته القهرمانة وبذئت في الكـــلام فأقعـــى ذليلا وأخذ صاحبي بملابسي ودفعني إلى الباب دفعا وهو يقول:

- احكي لها حكايتك وقل لها بعثني صاحب البرنس الرمادي.

وفـــتح الباب مواربة فدخلت ووجدتني داخل غرفة نظيفة يحتل صدرها سرير يتسع لشخصين.

---

(1) ضجر / .

وفـــي جانب منها مائدة عليها أدوات الزينة تعلوها مرآة بيـــضاوية وفي ركن مشجب وطاولة عليها بعض الكتب وكأس رشقت فيها أقلام، وعلى النافذة ستائر من الموصلي الموشى...

وعلـــى العمـــوم فقد كان المكان نظيفا مرتبا، وقد يوحي لغيـــري بالـــراحة والاطمئنان، إلاّ أني كنت شديد الارتباك وأنا أنظر إلى المرأة تتزين. كانت في مجول حريري أزرق عارية الكتفين طويلة رشيقة بشعر كستنائي مرسل على كتفين ضيّقتين حسنتيْ الاستدارة، تنبت منهما ذراعان بضتان.

كانـــت تضع على فمها قرمزا وبحركة منه تنشر الطلاء على كامل الشفتين.

نظـــرت فـــي المـــرآة فـــرأت أني تركت الباب مواربا، فنهرتني بشيء من الغلظة أن أغلق الباب وأن أضع حملي على الطاولـــة وأجلـــس، فامتثلت، ثم توجّهتْ إليّ ولاصقتني ولعبت بكرافاتي.

ودفعتنـــي بـــرفق إلى السرير وسقط مجولها وقد شاءت إسقاطه... لكني اندفعت واقفا وقلت لها:

- اســـمعي يـــا أختي... أنا ما جيتش لهذا...أنا بعثني صاحب البرنس الرمادي.

قالت:

- يكب سعدو، صاحب الغرايب، تفضل... اقعد.

جلستُ ونظرتْ تتفحصني، وقالت:

- م اللحظة الأولى شكيت في أمرك.

وتذكـــرتْ فجـــأة فالتقطت مجولها ولبسته وجلست حذائي فرويت عليها القصص وقلت:

- إلـــى حدّ الآن مانيش فاهم العلاقة بين سيادتك ونشر كتاب من مؤلفاتي.

قالت:

- أنت كاتب؟ قداش[1] عندك من مؤلف؟
- سبعة عشر.
- تبارك الله ! ما نشرتش منهم ولا واحد؟
- ولا واحد.

قامت إلى الإضبارات الثلاث فأخذت واحدة وقالت:

---

(1) كم؟.

- تسمح نشوف؟

وفتحت الإضبارة وتوقفت عند الملف الأول، حيث جمعت نـــصوص قصـــصية، فأخذت القصة الأولى التي تتاهز كلماتها مائتين لا غير، وانبرت تقرؤها وأنا أنظر إليها جالسة قريبا مني وخـــصلات من شعرها تتهدل على وجهها، وربما كانت تحول دون القراءة فكانت تمدّ يدا جميلة بيضاء ناصعة بأصابع رشيقة مخضبة الأظفار بالأرجوان، فتعيد الخصلات إلى موقعها، وكان بأنفها رشْح، فمدت يدها تبحث عن منديل ورقي دون أن تحوّل بـــصرها عن الورقة، وضعتُ المنديل في يدها فجففتْ أنفها في صوت خفيت، وبإصبعين أمسكت المنديل، وبالوسطى والبنصر واصلت رد الخصلات عن وجهها.

أتمـــت القراءة فاستأنفتها، وفي قراءتها الثانية كنتُ ألحظ تغضن جبينها في بعض المواقع وإطالة التوقف في موقع آخر، ثم تواصل عيناها السعي البطيء بين السطور.

لما أتمت وضعت الورقة في الملف وسألت:

- الملفات كلها قصص قصيرة مركزة من ها النوع؟

قلت:

- هـــناك مجمـــوعة أخــرى مـــن نوع آخر، الإنسان يتطور وتتطور رؤاه الفنية...وبقية الملفات فيها مقالات نقدية.

قالت:

- الـــنقد مـــا نفهموش... يلزمو ثقافة معينة. أنا نحب الشعر والقصص.

- وعجبتك قصتي؟

لم تجب وظلت تفكر وعيناها عالقتان بالسقف كنت أنتظر حكمها على قصتي بشيء من الرهبة،

ولـــم أكـــن أدري لمَ بدا لي ذلك الحكم مهمّا جدا ومرعبا انتظارُه، وأن مستقبلي الأدبي معلق بشفتي امرأة التقيها في هذا المحـــل بالذات...كان إحساسا مبهما لا منطق فيه ولا مبرر له، لكنه كان قويا وآسرا.... وأخيرا نظرت إلي باسمة وقالت:

- أنت كاتب موهوب جدا يا...

وأسرعت أقول:

- مراد

- أنــت كاتــب موهوب يامراد... ما أعجبني في قصتك أنك تحكي على المسكوت عنه، عن المشاعر الصغيرة البسيطة والحركة اللي مانتراش[1] واللمسة اللي ما يتفاقش بيها.

سعدتُ جدا بذلك الحكم وسرى في انتشاء... ها قد وجدتُ أخيــرا مــن يهتدي في بساطة ويسر ودقة إلى دقائق مشروعي القصـــصي ويقـــدره حق قدره. فليخرس ذلك الناقد الكبير الذي وصـــف كتابتــي بأنها خالية من العمق. وكدت أنبري في بسط مشروعي في كتابة القصة لكنني أقلعت.

وفـــي تلـــك اللحظة سُمع قرع عنيف على الباب، وبلغنا صـــوت القهـــرمانة تستعجل خروجي و تسبني، وتوصم المرأة بأبـــشع النعوت، وتلعن صاحب البرنس الرمادي... لكن منية لم تعبأ بتهديدها.

وأشـــرتُ إلـــى الكـــتب الموضوعة، واستطعت أن أميز روايـــات لحنا مينا وجبرا إبراهيم جبرا وديوان طاغور بترجمة التليسبي.

---

(1) أليس هناك؟

قالت:

- الكتب لأوقات الفراغ.

قلت:

- وما هي أوقات الفراغ عندك؟

وندمتُ على السؤال واعتذرتُ لكنها قالت:

- لا بأس. أوقات الفراغ أحددها أنا بنفسي.

وأطـــرقتْ، وامـــتد بنا صمت وأنا أتأملها. ثم رفعتْ إليّ عينين مخضلتين وقالت:

- كـــنت فـــي الليسي أكتب القصة وشجعني أستاذي ونشر لي قصة في جريدة بلادي....

وعـــادت إلـــى الصمت تعبث بحزام المجول، ثم رفعت المـــنديل إلى عينيها فجففتهما وحوّلت إليّ ثغرا مبتسما ابتسامة مبللة ببقايا دموع.

وقالت:

- لأول مـــرة نـــشوف كاتب ونحكي معه مباشرة... كأني في عالم غير العالم.

أخـــذتُ يدها تلك اللطيفة الرقيقة البضة الرشيقة الأصابع فحضنتها وقرّبتها من شفتيّ وقبلتها وقلت:

- لكـــن الكـــتاب بشر عاديين، وربما يكونوا أشقياء أكثر من غيرهم.

فجاءت حمامتها الثانية لتحضن يدي وقالت:

- شـــقاهم هو السبب في تميزهم... موش فمّ شاعر مانعرفش شكون قال أمتاز عليك بأحزاني؟

ثـــم ظهـــر الجـــدّ على وجهها... جدّ العازم على الأمر الخطير وسحبت يديها وقامت وعيّنت كرسيا مولّى شطر الجدار ورجتني أن أنتقل للجلوس عليه.

وبعـــد بـــرهة اقتـــربت مني ووضعت يدها على كتفتي، فنظرت فإذا هي قد وضعت تنورة سوداء ينزل عليها إلى الكفل مـــسرودة برتقالية اللون بأكمام قصير ة تكشف عن الترقوتين، وقد ضغطتهما حمّالة سوداء انغرزت في ليونتهما.

كانت جميلة جدا، نبيلة ومبهرة.

قالت:

- هيا.

ولم أفهم، ورأت تساؤلي الصامت فقالت:

- للمطبعة... هاهي هنا في شارع المنجي سليم... تخرّج كتابك على نفقة المؤلف.

- أي مؤلف؟

- المؤلف... أنت... فمّ مؤلف آخر غيرك؟

ولم تبدّد حيرتي ولم تترك مجالا لمزيد التساؤل إذ تقدمت وطوّقت عنقي بذراعيها وخبأت فيه وجهها.

وارتفعت يداي فطوقتُها بواحد، وجاست الثانية في شعرها، وبلغني عبيره نافذا إلى الأعماق شذيا منعشا...

وخرجنا من الغرفة وهي حاملة إحدى الإضبارات، والتفتت إلى القهرمانة وقالت:

- أمي بية، مانيش راجعة اليوم.

واحتجت القهرمانة وشتمت وجدّفت وزادت فلعنت دين والدي صاحب البرنس الرمادي، فلم تعبأ بها، وسرنا خارجين من النهج المبارك، نهج الولي الصالح سيدي عبد الله.

وفي مرورنا شاهدت صديقي صاحب البرنس جالسا على ناصـــية نهـــج سيدي قادوس يرسل في الهواء بزخات الدخان، كـــنت علـــى يقين من أنه رآنا إذ لم يكن يفصلنا عنه إلا أمتار قلـــيلة، لكـــنه تصنّع الغفلة، ولم يبدُ عليه سرور بما فعل، لكنني واثق من أنه سعيد، لأنه يعرف هذا الركن النير.

أفريل 2007

المزيفون

قال نادل المقهى بصوت يمكن للقريب منه أن يسمعه:

- ينعل بوها الخدمة الكلبة، ينعل بو الشيشة... ملّيت من عيشتي[1].

نفخ بفمه على الفحم حتى تصدّع رأسه. احتوى مبسم النرجيلة وامتص وانتفخ صدره وامتلأ وزفر...

لا دخان البتة... لم تستمكن النار من الفحم.

نظر إلى الفحم بحقد وعاد يهوّئه بمروحة الخوص وبلغه صوت الحاج مفتاح من بعيد:

- هيا بحروني ! خف روحك.

فردّ عليه بتبرم:

- اسكت يا شيبة النحس يا حاج بيرّة !

حمل النرجيلة وهو ما فتئ يزفر ويشهق وينفث الدخان تمكينا للنار من المعسل ووضعها بين ساقي مدير شركة المخابز المتجمعة سي منصور الشحيمي. فأخذ منه الخرطوم ولفه

---

(1) مللت حياتي / .

بمنديل ورقي أبيض وفركه بقوة ونظر في المنديل فإذا به صفرة قزّزته. وقال موجها خطابه للنادل المتواري:

- نظف فمك... شنوّه الهمّ هذا!

وامتص ونفث وقرقرت النرجيلة كبطن جائعة. وتوالت تعاريج الدخان الثقيل المحمّل بعطر ثقيل.

قال مدير شركة المخابز المتجمّعة لما شاهد النادل مقبلا:

- هات لي تاي أخضر بالبندق وزيد الشعول[1] وهات المقص معاك وخف روحك بربي[2]!

وقال الحاج مفتاح:

هات لي قهوة عربي... زوج سكر ونكتة زهر[3].

خرج النادل. وكاد في حنقه واندفاعه يصطدم برئيس فرع الاتحاد البنكي وقابض البريد والأستاذ حيسون مدرس الفلسفة. فاتهم وتمتم: كمشة أوباش.

***

---

(1) حمرة /.
(2) أسرع /.
(3) قطرة من ماء زهر النارنج/.

يجتمعون في مخزن قهوة المعلم شاكير، أفرد لهم طاولتين منعزلتين قرب صناديق المشروبات الفارغة ومواعين التنظيف وحطام الكراسي وهياكل الموائد ويتجنبون العامة.

جاء أحد الشبان وبيده زجاجة كازوز وكتاب. اقتحم المخزن وأفشى السلام وجذب كرسيا انتبذ به مكانا قصيا وأخذ يقرأ ويعب من زجاجته بين الحين والحين.

نظر الجماعة بعضهم إلى بعض وقالوا:

- ما هذا؟! ونادى الحاج مفتاح بصوت صارم حانق:

- بحروني !

فخف إليه النادل، فجذبه إليه وهمس إليه كلاما خافتا إلا أنه شديد وهو يشير بطرف خفي إلى الشاب الغريب. استقام بحروني وانصرف إلى الشاب ورجاه بأدب أن يدخل الصالة. امتنع الشاب لأن ضجيج لاعبي الورق يمنعه من القراءة، ثم إن هناك دخانا كثيفا وهو من غير المدخنين. قال له الأستاذ حيسون بلسان عربي مبين:

- اسمع بنيّ ! ماذا تقرأ؟

- كتابا عن ديمقراتورية العالم الثالث.

- ديمقراتورية؟! ما هذا المسخ الجديد؟! من هو مؤلفه؟
- خوسي مارية فرنانديز... صحفي برازيلي، أتعرفه؟[1]
- هذا المصطلح غير موجود لا في لسان العرب ولا في القواميس الحديثة فما دلالته؟
- يقصد به ديمقراطية الدكتاتورية أو ديكتاتورية الديمقراطية.
- حسنا، اسمع بُنيّ ! أنت فارّ من الضجيج ولعب الورق والتبغ ونحن هنا نضج ونلعب وندخن.

وتقدم إليه بحروني ورجاه أن يتبعه لكن أصر على البقاء...وغضب بحروني غاية الغضب ورأى أن رفض الشاب إهانة شخصية له، فتقدم منه وأمسكه من ياقة قميصه وجره إلى الخارج ودفعه... وحاول الشاب التملص لكن قبضة بحروني أودعت لكمة في بطنه. انطوى الشاب وسقط، فخف إليه شبان من رواد المقهى فأقاموه وأخرجوه وتوجهوا إلى النادل باللائمة.

شعر بالخجل والندم... هو لا يحب الحاج مفتاح وجماعته، لكن الشاب ما حبش يفهم بالسياسة[2] ولعن الشيطان. وسأل عن الشاب مَن أبوه؟ فذكروه له: فقال:

---

(1) الاسم من خيال المؤلف /.
(2) لا يفهم باللين/ .

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الولد بوه حبيبي[1].

وحمـــل على الحاج مفتاح وسبّه في سرّه. وما هي إلا أن عاد الشاب مصحوبا برئيس مركز الشرطة بطم طميمه سي عبد الجـــبار الـــنمّوري، فتوجه إلى النادل يسأله عن الواقعة، فناداه الحاج مفتاح وانتحى به جانبا وقال له:

- نحـــن أعـــيان الـــبلد، ولا يصح أن نختلط بسفهاء المدينة وسوقتها، والولد طوّل لسانه، وزيد على ذلك يقرا في كتب مشبوهة ويتحدث في السياسة. ولد سفيه!

وقال النادل بحروني لمّا سمع هذا الكلام:

- ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يشعرون.

وزاد فلعن الشيطان وتوجه إلى الشاب معتذرا فرفض أن يمـــد لـــــــه يده بالمصافحة وولى خارجا، وقال رئيس المركز لبحروني:

- امسك أعصابك شويه ! لو كان قتلته؟!

* * *

---

(1) أبوه صديقي .

جـــاء خــــادم بمائـــدة أخـــرى قربها من الأولى فأضحت مستطيلة كمائدة مجلس الوزراء، وأفسحوا مكانا للقادم الجديد... وبـــسطت فرشـــة مـــن السجاد وطرحت أوراق "الرامي" وجاء بحروني واتكأ بكفيه على الطاولة وقال:

- فتحت الجلسة، أش تشربوا؟

طلب من لم يطلب شرابا وبدأت اللعبة.

أخـــذ مديـــر شـــركة المخابـــز المتجمعة حزمة الأوراق وخلطها غلطا جيّدا، بسرعة أولا ثم بدأ يتباطأ قائلا:

- كـــنا في الأول نظن أن الحرب العالمية الثالثة ستنطلق من خليج الخنازير مع أزمة الصواريخ الكوبية

ثـــم قلـــنا مـــن الشرق الأوسط ونحن جهلة، ما نعرفوش نخلطو أوراق السياسة. ثم قلنا من الخليج ثم من البلقان... وفي كل مرّة تكذب علينا وتغالطنا... لكن صدقوني هذه المرّة شباك بيـــتها من مضيق تايوان عينيها ضويقين وهي في روب حرير أحمر قصير الأكمام مشقوق الصدر...

ولمـــا أتم الجملة كان قد اقتطع جزءا من الأوراق وضع عليها "جوكي" ووضع فوق الجوكي ثلاث أوراق، ومدّ المقتطع

إلـــى الحاج مفتاح الجالس عن يساره، وشرع الحاج في توزيع الأوراق فوضع أمامه ثلاثا وأعطى لكل من يليه ورقتين.

قال الأستاذ حيسون معلقا على الكلام السابق:

- لقد أثرت شبق الحاج مفتاح وهو على وضوء، أنا متأكد أنه نعظ.

ضـــحكوا ثـــم اســـتغرهم ترتيب الأوراق والبيع والشراء ومـــا هـــي إلا دورتان أو ثلاث حتى بسط مدير شركة المخابز أوراقه كاملة: متتابعتين وثالوثا أحد أوراقه جوكي.

قال سي حيسون:

- يـــا سي عبد الجبار تأخرت علينا... تلقاك كنت تلاحق في أحـــد اللـــصوص... السرقة كثرت ها الأيام. هذا ما يمكن تسميته: الوجود بالعدم، أنت غايب وحاضر في نفس اللحظة وفي نفس المكان.

بعد ذلك جمّع مدير فرع الاتحاد البنكي الأوراق وخلطها وهو يفكر في موضوع يصرف به اهتمام الجماعة عن معالجة الأوراق، قال:

- اليوم وصلني مكتوب من مواطن، موظف بسيط يطلب قرض م البنك: وقال في المكتوب اللي هو عندو دين ومرتبه ضعيف وهو في حاجة أكيدة لهذا القرض.

ففهم عليه الحاج مفتاح لما شاهد تباطؤه وقال له:

- وما المشكل؟ الناس الكل تأخذ قروض.

قال:

- أعطاني كل المبررات باش نرفض مطلبه.

واخذ منه الحاج الأوراق فخلطها بيده ثم أعادها إليه بما لا يترك مجالا للغش. لكنه لم يتفطن إلى ورقة سرّبها مدير الفرع البنكي إلى كمّ جمّازته.

ثم اقتطع جزءا سلمه إلى الأستاذ الذي كان في تلك اللحظة يعتريه شرود، يلاحق أطروحة الوجود بالعدم، ويحاول أن يتذكر إن كان سارتر قد قال شيئا مشابها، أخذ الأوراق وبدأ يوزعها والشرود متمكن منه.

قال بعد أن حدس ببلوغ النصاب في التوزيع:

- احسبوا أوراقكم.

تجاوز العدّ وعليه فتوزيعه باطل ملغى مثل ورقة انتخابية.

وجمع الأوراق وسلمها إلى حسن المبروك قابض البريد فبدأ يخلط وغالط الحماعة وأسقط في حجره جوكي. تفطن حيسون للحركة ولكنه غض الطرف، "طفّى الضو"[1] وتستّر عليه.

واستمرّت اللعبة إلى ساعة متأخرة...حتى جاءهم بحروني وشرع في جمع الكراسي من حولهم في شيء من الغلظة. دفعوا ما عليهم في تلكإ ولجاجة ومساومة... وخرجوا في بطء من القهوة يتممون كلاما بدؤوه حول الانتخابات في بوركينا فاسو... واعتبروها النموذج الذي يجب أن تقتدي به بلدان العالم الثالث... من حيث الشفافية والنزاهة.

---

(1) لم يكترث/ .

باب العرش

كانت للا منوبية تتفرج على ما يعرض التلفاز من فكاهة، كانت منقبضة شيئا وكانت تحس أنها على غير ما تروم.

فجأة انقطع التيار الكهربي فوضعت يدها على الكانون[1] لتمنع الضالين في ظلام الغرفة من التعثر به، وأمرت ابنتها أن تذهب للبحث عن شمعة في المطبخ.

وما خطت البنت عتبة الغرفة حتى عاد التيار... لكن للامنوبية[2] قررت أن تقوم، فقد قرب موعد صلاة التراويح والليلة ليلة القدر وهي حريصة على قيام العشر الأواخر عسى الله....

انعطفت في زقاق سيدي عبد النبي حيث تسكن، وما إن تجاوزت الحمّام المبارك وتوجهت إلى المسجد الجامع الذي يهيمن على قصبة مدينة طبربة ومرت تحت سبط[3] يحجب ضوء مصباح التنوير العمومي ويُحدث مساحة من الظل حتى

---

(1) فرن صغير يصنع من الطين أو من المعدن/.
(2) السيدة /.
(3) ممر مسقوف/.

رأت جسما طريحا على الأرض، فظننته شريدا وبيتت أن تطعمه وتؤويه في ليلة خير من ألف شهر.

اقتــربت مــن الجسم وأمعنت النظر في الوجه فإذا هي للامبروكة جارتها وصاحبتها الروح بالروح[1].

حرّكتْها وهتفت بها وهي تلطم خدها لطما خفيفا:

- مبــروكة! مبروكة! ووه على وخيّتي ! آش بك؟ آش جرى لك؟!

لكن للا مبروكة لا تعي. عندئذ أطلقت عقيرتها بالصياح.

تجمهــر حــولها بعــض سكان الدور المجاورة وفرناق الحمّام[2] والحارزة[3] وبعض رواد متجر حبيب بن ترجم ودكان مــصطفى بوشوشة الله يرحمهما وحمل بعضهم للا مبروكة إلى بــيت صــديقتها وطــرحوها على زريبة مفروشة وسط الدار وجــاءت البنات على وقع الضجة برزن من غرفة إحداهن في الطابــق العلــوي حيث كنّ يضحكن ويتعابثن، فرأين ما يجري ففزعن وانتحبن... "فدمع الحزن معْ دمع الدلال".

---

(1) صديقتها الحميمة/.

(2) القيم المتعهد بفرن الحمام، وللفظة في غير جهة العاصمة دلالة أخرى/.

(3) القيمة على الحمام في قاعة الاستقبال، تحريف: الحارسة/.

لــــلا منوبـــية كانت محافظة بعض الشيء على هدوئها، فأمـــرت كبرى البنات فوزية فأحضرت فاشكة زهر[1] وجرت ياســـمين بـــزجاجة عطــــرها الخاص،وضمّخن وجهها وقرّبن الـــزجاجة من أنفها وضربن وجنتيها، والبنات يولولن ومنوبية تناجيها:

- مبروكة! مبروكة! يا وخيتي! لقيتها مرمية ما في عينها بلّة[2]

وجرى ذكر الطبيب.

لكـــن مبـــروكة حـــرّكت رأسها يمنة ويسرة واستقامت سبابتاها بإشارة الشهادة.

صـــمت الجمـــيع منتظـــرين ما تؤول إليه هاته الإشارة المزدوجة: إشارة الموت والحياة في آن.

وخمّـــنت للا منوبية أن بنات صديقتها سيبقين لا قدر الله فريسة لليتم، فليس لهن إلا هذه الوالدة التي هي الآن على أعتاب البرزخ...وحزمت أمرها على ضمّهن زوجات لأبنائها.

---

(1) قنينة فيها ماء زهر النارنج / .
(2) فاقدة الوعي /.

- وخيتي الله لا يفجعهن في اميمتهن ببركة هذا الشهر الفضيل وليلة القدر وأهل بدر.

تحــركت شــفتا مبــروكة، ثم فتحت عينين لا تبصران، وحملقــت فــي الوجوه دون أن يبدو عليها أنها عرفت أحدا، ثم اســتقامت واقفــة وركــضت وسط الدار وذراعاها مرفوعتان، وبــدأت تحوم ساهمة شاردة تنظر إلى السماء وتدور مثل جمل بروطة في القيروان[1] والحاضرات ترمقنها مشدوهات...

ثــم عرفت بناتها، فهفت لهن، وعانقتهن،وانخرطن جميعا في النحيب واستعبرت النسوة فتذكّرن وبكين وتمخّطن.

هــدأت الــنفوس وتراجعت الأخلاط، فقالت رباب ابنتُها الكبرى:

- ماما احكيلنا ! آش بيك؟ آش يوجع فيك؟

وقالت للا منوبية:

- يا وخيتي فجعتنا عليك قلبي طاح... تي اشنو غلبتك[2]؟

(1) جمل يدير عجلة استخراج الماء/ .
(2) ما خطبك؟ / .

نــزلت ذراعا مبروكة من حول أطواق بناتها، وتوجهت إلـى كرسـي واطئ، فجلست عليه وصمتت ساهمة، خاطبتها النـسوة، نادتهـا بناتها وحبيبتها للا منوبية، لكنها ظلت ساهمة غائـبة البال، تتمتم أحيانا وترفع سبابتيها وتحدق في السماء ثم تصمت.

وبـدأت النـسوة الآتـي جلـبهن العـويل في الانسلال محوقلات،حتى خرجن جميعا وأوصدت منوبيبة الباب وراءهن ولم تذهب لصلاة التراويح ليلتئذ... ليلة القدر.

هـذا كل ما روت محبوبة عن للا منوبية وأقسمت برأس زوجهـا وذراريها والشهر الفضيل أنها لم تزد على الحقيقة قيد عين الإبرة.

* * *

قال الراوي وهو فرناق حمام سيدي عبد النبي:

- جلستُ لا يفصلني عنهن إلا جدار من الآجر العاري وبيني وبينهن النحاسة[1] والساقية، أنا في الظلام وهن في الضوء، أنـا الديجـور وهـن الـنور، في شهر رمضان يزيد عدد

---

(1) خزان الماء الساخن/ .

المـــستحمات في الليل، الرجال في التراويح أو في المقاهي وهـــن فـــي الحمـــام...في النهار لا وقت لديهن...تشغلهن المطابخ.

قال لـــه صاحبه:

- هات مخ الهدرة[1] اختصرْ!

قـــال الفرناق: كنت أتلصص من ساقية الماء لكن لم أكن أرى إلا الأقـــدام وشـــبرا مـــن السيقان...ترى الساق البيضاء والـــسمراء والمليانة والنحيفة ومنها تحكم على الباقي... ولنعد لمنوبـــية، هـــي امـــرأة صـــالحة حجت مرتين واعتمرت في رمضان...زارها سيدي عبد النبي في المنام وأعطاها مشموما[2] بعـــد نهارين تسيبوا المحابيس[3] وشملهم العفو إلا ولد مبروكة لا حد يعرف ميت وإلا حي.

قال لـــه صاحبه:

- يا ولدي هات من الآخر.

---

(1) اختصرْ / .
(2) باقة من الفل أو الياسمين/.
(3) تحرر المساجين/.

قال الفرناق:

- سمعت إحداهن تقول: لما خرجت مبروكة قاصدة صلاة التراويح، ولما توسطت الزقاق رأت التنوير العمومي ينطفئ والنوافذ، ونظرت في السماء هل ترى سحبا؟ هل هبت الريح من تلقاء كاظمة؟ هل أومض البرق في الظلماء من أظم؟ ثم غمرها ضوء أزرق شفاف كغلالة العروس، ورأت السماء تنشق بخط طولاني أزرق داكن يربط بين تونس ومجاز الباب وخيل إليها أنها رأت أطيافا من نور أخضر تنزل إلى الأرض أو تعرج إلى السماء، قالت: ووه! باب العرش ! وسقطت مغشيا عليها.

***

فتحت عيشة دكانها الواقع حذو منجرة تشيبوليا العجوز الإيطالي عند اعتدال الضحى وتبخر الكسل الصباحي، رفعت الستار الحديدي فتمسح بساقيها قطها حارس المتجر من القوارض وصعّد ذيله اللين فدغدغ ربلتها ورفغها، توقفت له فأفرغ في نعومتها حنانه، ثم تجاوزته ناظرة في رفوف المتجر وما نفد من السلع، وولجت عليها رفيقتها صبيحة متعجلة كأصحاب البريد، وقالت دون أن تلقي تحية الصباح:

- سمعت يا وخيتي آش صار لمبروكة؟

- مبروكه؟

- نعم مبروكة المعلمة امرأة المرحوم رشيد الأندلسي.

- آش صار لها؟يسمعنا الخير!

- انفتح في وجهها باب العرش.

- يزينـــي عـــاد[1] بـــاب العـــرش ما لقى كان هي ينفتح في وجهها؟!

- لـــلا منوبية عمرها ما تكذب، هي اللي لقاتها دايخة... لابد أنها طلبت كل ما تريد وتشتهي.

ولمـــا تعلق الأمر بما يمكن أن تكون مبروكة طلبت من صـــاحب العـــرش ظهر الاهتمام على عيشة وقدمت لها كرسيا ورجتها أن تقص عليها القصص بالتفصيل.

ذكـــرت لهـــا شيئا كالذي ذكره الفرناق وزادت عليه: أن مبروكة طلبت أن يعود وليدها.

* * *

---

(1) كفى هذرا.

منذ قبض على وحيدها لم تحتفل مبروكة بالعيد ولم تبرز لمهنئـين ولـم تعدّ حلويات، بل إنها لم تدخل حمام سيدي عبد النبي رغم أنه لا يفصل بابها عن بابه إلا خمسون ذراعا، وليس للفرناق أي تصور عن جسدها، كانت تستحم في بيتها وتشتري لبـناتها حلويات جاهزة، ويوم العيد تكتفي بالجلوس في صحن الدار تسبّح وتتجلد في كتم دموعها. فإذا لامها لائم تمثلت ببيتين للشيخ علي الحصري:

بالله يا عيدا تبسم للـورى* لا تلقني إلا وأنت عبوس

هل عادة المشتاق ليلة عيده* وصباحه إلا بكىً ورسيس

لكـن هذه السنة فوجئ بها بناتها تكدّس قراطيس الدقيق، دقـيق القمـح والحمّـص والـدرع والجلجلان وشوش الورد والبـسباس وحـبّة الحلاوة واللوز المقشر... واستدعت الحاجة جنينة الأخصائية التي تستدعيها العائلات في طبربة لصنع ورق البقلاوة وطائفة من الحلويات الأندلسية، وقالت:

- باب العرش عمره ما يخيب طالبه.

وفوجـئ الجيران أيضا بالفتى الصعلوك "شمبيرو" الذي صـناعته بـيع البـيض المـسلوق وإعانـة نساء الحي في ما يـستعنّه...فوجئوا به يخرج من ببيت مبروكة محمّلا بالأطباق

إلـــى كوشـــة المختار بن زايد الله يرحمه... أما بقية الحلويات كالمقـــروض والصمصة ووذنين القاضي فقد أعانت للا منوبية على صنعها.

وجـــيء بالـــدهان فطلـــى البـــيت داخلَه وخارجَه بالجير الأبيض الناصع وطلى النوافذ بالأزرق التونسي على هيئة مباني سيدي بوسعيد. وفي المساء سمع الفرناق صوتا لم يتعود سماعه فـــي الحمـــام فأطل فشاهد ساقين لم يألفهما: لقد دخلت مبروكة الحمـــام....بـــل واســـتقرأ الغائب من الماثل: أن جسد مبروكة ما فتئ محتفظا بنضارته.

* * *

بعـــد خـــروجها من صلاة العيد تزينت وكحّلت وسوّكت وتعطّـــرت ولبـــست الجديـــد وفـــتحت بابها. فجاءت صديقاتها مهنـــئات. فاســـتقبلتهن ضـــاحكة مستبشرة وقدمت لهن المأكل والمشرب وخضن في حديث فكه بعض الشيء، وكن محترزات إزاء مـــا طـــرأ على مبروكة من تحوّل غير مفهوم، فوليدها ما فتـــئ مجهـــول المـــصير، وهن خائفات أن يكون أصابها شيء واســـتبعدن الـــسلوانَ، لكنهن جارين صديقتهن وتبادلن نظرات خفية ثم تساءلن:

- أوخيتـــي آش بـــيها للا منوبية ما ظهرتش؟ حتى في صلاة العيد ماريتهاش!

ذهـــبن لـــزيارتها وحملت مبروكة هدية مما صنعت من اللطائف... وجدنها متكئة ورأسها معصوب.

استقامت لهن جالسة فانحنين لتقبيلها وقالت مبروكة:

- يا وخيتي آش بيك اللطف عليك!

كانت متوعكة: صداع وارتفاع في الضغط والسكر طالع شويه.

ثم انخرطت في الصمت.

وألحت عليها مبروكة في السؤال فقالت:

- البارح رأيت منامة ما تعجبش... الله يقدر الخير.

وقلبت دفة الحديث.

طُـــرِق البابُ، ودخلت إحدى بنات مبروكة فهنّأت بالعيد، ثم قالت لأمها:

- ثلاثة رجال يسألوا عليك.

اصــفرّ وجهها وعلته قتَرَة... وسارعت خارجة. وأومأت منوبية إلى إحدى بناتها: قصّيها!

ثم عادت البنت.

القادمــون مــوفدون رسميون لإعلام مبروكة أن تقرير الطبــيب الشرعي يؤكد أن وفاة وليدها كانت بسبب سكتة قلبية مفاجئة.

1997

الأم

إلى مكسيم غوركي

الذي رافقتني رائعته ذات وحدة.

كان في الليالي المقمرة حين يضيق به الوجود البيتي ويحنّ إلى فضاءات الروح المكشوفة يأتي ذاك الحقل فيقف على تلعة سكة الحديد غير بعيد من تلك الضيعة المنعزلة في ظاهر المدينة، المحاطة بأشجار الزيتون.

هو يعرف تلك الكلبة التي تهب من الضيعة على رائحة قدومه، تميّز هامته من هامات الأشجار فتستنفر بقية الكلاب وتهاجمه. يعابثها متظاهرا بالهرب، ثم يعود عليها فتتراجع... ثم تكرّ عليه فيتسلق زيتونة.

تنصرف الكلاب خائبة، أما تلك الكلبة فتقف عند أصل الزيتونة في أقصى توترها ونباحها وهريرها، تقول له شاتمة:

- يا بَشَر!

وتدعوه للنزول فيسخر بها، وإذ تيأس منه تبسط ذراعيها لاهثة وتسرّح بصرها في الحقول.

ينزل من الشجرة، فتشيعه بعينين غائبتين.

واليوم ذهب إلى جوار السكة كما تعوّد أن يفعل، فاعترضه بين الزياتين صبيان يحملون جرو كلاب وكلٌّ به حفيّ ولوع.

همّ أن يقول لهم:

- هذا صغير بحاجة إلى أمه.

ولما صار على جانب السكة جاءت الكلبة وحدها من تلقاء الضيعة. كانت هادئة لا تلهث وأطباؤها متدلية وحلماتها مورّدة...وغير بعيد تعالى هدير القطار.

همّت أن تعبر فصاح بها:

- انتظري! أما سمعت القطار؟!

انتظرت.

وبعد مرور آخر عربة سألته:

- أعبر؟

قال:

- اعبري !

عبرت.

ثم رآها تقفو أثر الصبية.

وصــلت حافة الحقل وبينه وبين المساكن طريق يعبرها السيّارة من الرجال وذوي العربات. تأملت يمنة ويسرة، تشممت الأرض، تنسّمت الهواء، رفعت وجهها إلى السماء، ونبحت.

عادت من حيث أتت حتى وقفت أمامه. سألته:

- رأيتهم؟

قال:

- نعم ! ولعل صغيرك يكون أفضل حالا عندهم... سيعتنون به.

قالت:

- نعم. ثم سيسأمونه وسيضعون في عنقه السلسلة... سيشدونه إلى شجرة، ويأتيه القُراد.

لم يجد جوابا.

وقفا معا على تلعة السكة. الصمت مطبق والكون ساج.

جلست، ثم تمددت على الأرض وبسطت ذراعيها وضعت علــيهما رأسها. اقترب منها فجلس قربها. نظرت إليه ثم حوّلت بــصرها عــنه، وأتت ضروبا من الأصوات فيها نوح ودعاء وهرير وعواء وصنعت شيئا شبيها بالأنين الممتدّ. وصمتت.

رفع يده... يريد أن يضعها على رأسها...يربت وبرها... يريد أن يعتذر. فتحت عينيها وكانت مطبقة ونظرت إلى يده.

عدل وسحبها.

جمـــع ركبتيه ووضع عليهما ذقنه. ونظرا معا إلى السهل الممـــتد تحـــت غطـــاء فوقـــيّ من خضرة الزيتون الداكنة... واستطالت ظلال الأشجار واصطبغت الخضرة بلون برتقالي... وجـــاءت الكـــلاب صـــامتة ومعهـــا كلاب غريبة عن الضيعة لا يعـــرفها، فـــيها جراء مرحة تتبع أمهاتها، لم تعبر السكة... بـــل ظلـــت واقفة قبالتهما، تجمهرت صامتة لا تنبح ولا تلهث، وانـــبطحت أرضا. بسط كل كلب ذراعيه ووضع عليهما رأسه. وتلونت البقعة بفرائها المختلف الألوان. ولولا الجراء التي كانت تقفـــز علـــى ظهـــور بقية الكلاب الرابضة لخلت المكان مقبرة أضرحتها صغيرة ملونة كما لو مرّ وباء كاسح على قرية فذهب بصبيانها جميعا.

ومـــال مـــزيج الخضرة والبرتقال إلى لون قاتم وسرت نسمات باردة.

قامت الأمّ وتمطّت. وقامت بقية الكلاب أيضا.

قالت ولا تنظر إليه:

- أعبر؟

قال: اعبري!

عبرتْ.

2006

وجه في ليل المدينة الغافية

ربـــت النادل الطيب على كتفي بلطف ثم هزّي بعنف ثم صـــفعني صـــفعات متتالية ثم ركلني برجله وصب على وجهي وعنقـــي كـــوبا من الماء المثلج فاستيقظت وانقطع الشخير فجأة كما ينقطع التيار عن مذياع.

"سنغلق المقهى ولم يبق سواك"

* * *

أذرع الشارع الطويل وتعترضني سيارة الشرطة، فيشتبه فـــي أمـــري ثم أطلق بشيء من الرثاء لحالي وتصادفني بنات الليل والشواذ والسرّاق والعسس والمتشردون والقطط والكلاب، كـــل يـــسعى إلـــى مبتغاه إلا أنا لم تكن لي غاية واضحة سوى ألا أكـــون بالبيت. نتبادل في مايشبه الودّ تحية ما بعد منتصف الليل ويقول لي بعضهم ناظرين في معاصمهم:

- ألـــم يظهر وجهك بعد؟على من تقرأ أنباءك في هذه الساعة المتأخرة؟

* * *

قلت له:

- يا حضرة المدير لو يعاد ما يعرض في النشرة الأولى؟!

فأعرض ونأى بجانبه وغاص في المقعد الوثير وقال:

- وأي طـرافة في ذلك؟ وماذا نصنع بالأنباء التي توافينا بها الـوكلات فـي سـاعة متأخرة؟ آلاف الساهرين ينتظرون وجهك، أنت جزء من سهرتهم.

الـوقت يباغتني فأهرول إلى مبنى القناة والمدينة مخدرة بوشوشة المطر مسبلة الجفون والناس أسرار في خواطر الشقق المعـتمة. سأطل عليهم بعد حين بعينين مطفأتين وجفون قرحها ليل الشتاء الطويل.

قـد تمتد الأصابع متشنجة إلى الأجهزة فتقطع عنها التيار وقد يُقطع الصوت وتبقى الصورة تتمتم في بلاهة خرساء.

* * *

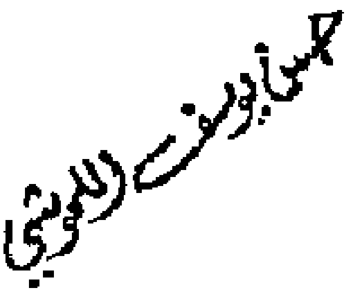
أجري إلى البيت مجمّد الأطراف فتسألني الشرطة هويتي ثـم أطلـق بشيء من الرثاء لحالي وأعرج إلى الطابق السادس فأجـد صفيحة القمامة بانتظاري فأتنّزل بها وسيارة رفع القمامة

قد فاتت واختفت في المنعرج، فأعود بحملي أدفعه إلى قمة الجبل، وأتسلل إلى جانب الزوجة الدافئة.

تتبرم بي حين يلامسها جسدي المثلج، فتثور وتحتمي بملابسها فأثور بدوري ويندفع سيل من السخط والضجيج والاحتجاج المكرر.

تقول:

- مأساتي أني لا أقدر على إسكاتك بالضغط على زر كما يفعل بك بقية الشعب التونسي... حينئذ يهمد غضبي وأحس بعظم الكارثة فأخف إلى معطفي وأنزل السلم، فأجد المساجد والمقاهي والمباغي أُغلقت والقمامة رُفعت والشوارع كُنست والنجوم بُعثرت... ولم يبق إلا وجهي الكائنَ الأوحدَ في ليل المدينة الغافية.



جري الرياح

لـــم يكـــن بينهما سوى تحية عابرة، وتمر تائهة برشاقتها وبعينـــين مـــن الفيروز لا تستقران على رجل. وكانت إذ مرّت تركت في صدره كالأسف أو الخسران أو الجرح لا يندمل.

ثم جاءت بيتهم تدعو إلى عرسه.

ومضت ومضى هو في غير الطريق التي يودّ.

واعترضته اليوم وبيدها طفلها...وقفت واستوقفته، ومدت كفا خضيبة، وقال يحادثها والبصر حسير:

- هذا وحيدك؟

- لي طفلة غيره، وأنت؟

- لي طفلتان.

وامـــتدت لحظات من صمت من غير جلي المعنى لكنه ثقيل مكتنز. قال:

- ومع ذلك فأنت رشيقة ضامرة كما قبل أن تتزوجي.

تفـــتحت في وجهها زنبقة وأزهر شتاء ومدّت ساقا ملتفة في سروال لصيق من القطن وقالت:

- أحقا تجدني كذلك؟

وامتد صمت آخر بمعنى جديد مبهم.

أمرت طفلها:

- قبله!

وانحنى هو يقبل الطفل فصفعه. واحمرت وجنتها من الحرج. قال:

- لا بأس.

قالت:

- أقبّلك أنا إذن.

وقبلته على خده قبلة مفردة لا موازي لها... وظل لبرهة شاخصا ثم استرد الوعي، ومدت يدها مودعة.

أمسك يدها وضغطها شيئا فتركتها له بقدر ما عادت سريعا من غيبوبتها... غشت زرقةَ السماء سحابةٌ بيضاء... هبّت نسمة دافئة... استلت كفها بأناة، ومضيا في اتجاهين متقابلين... قطعا مسافة مائة نبضة من قلب متسارع والتفتا في ذات اللحظة.

ذلك الرجل

ذلك الرجل الذي كان يعترضني على الطريق السيارة بين سوسة والحمامات كل يوم عند القائظة في زيه الرسمي وعيناه محجبتان بنظارة شمسية يستحيل وراءها أن تقرأ داخله... يقف على الإسفلت المذاب يستوقف سيارة تنقله إلى وجهة ما، ذلك الرجل الأسمر الوسيم الذي صار يعرفني فلا ترتفع يده مشيرة بالإبهام إلى وجهته بل صار يشيح عني... ذلك الرجل الذي خاطبني بجفاء حين عرضت عليه أن أنقله، ذلك الرجل الذي ألححت عليه يوما ورجوته أن يركب إلى جانبي فصعد السيارة وتلصّص من تحت نظارته على ساقيّ، ذلك الرجل الذي ظل لمدة أسبوع يصاحبني في الطريق ولا يجيب عن أسئلتي ثم سألني عن صناعتي وسبب سفري اليومي إلى الحمّامات... ذلك الرحل الذي بكى على كتفي ونذر حياته لي... ذلك الرجل الذي أفرغ مسدسه في صدغي فأوقف وحكم عليه بالعقوبة القصوى.... ذلك الرجل هو الذي يقف الآن على الإسفلت المذاب يستوقفني لأنقله إلى الوجهة الأخرى.

زوايا معتمة

دهشتها أوسع من أن تحويها اللامبالاة، والحفيظة المتواسعة بإزعاج المخبرين وتتالي الاستجوابات ووقاحة الأسئلة... جرى الزمن في أرجاء رأسها مرتجعا... ثلاث سنوات تكوّرت في لحظة.

لما ضرب القطار ضرباته تلك التي توقظها كل صباح منفعلة استيقظت ولم تجده، ورأت أن لذلك سببا متصلا بجلوسه الطويل على مقربة من سكة الحديد في مواعيد القطُر.

* * *

أفسحت له ممرا في دهشتها ودخل، وضع ضع حقيبة صغيرة كمتاع قادم من قريب أو متعجل الرحيلَ وهفا الأطفال إليه ثم ارتدوا عنه، هذا أبوهم؟ هذا أبوهم قد تغيّر: شعر مشتعل وندبة حول العين وحَوَلٌ، إحدى العينين لا تطرف أبدا.

جلسوا على الأسئلة، أمسك يد الطفل الأصغر وجذبه إليه... بكى وسارع يحتمي بحضن أمه... داعب شعر البنت ورأى في وجهها تحفظا وأسئلة، جذبها إليه واحتضنها، أحسّ

نهدين صغيرين على قميصه واشتم رائحة أنثى، بعُد الرحيل الآن ولا بدّ لهذين البرعمين من رعاية، لابد ممن يحدب على نموّهما.

نظر إلى زوجته وقال برجاء:

- اجلسي، أرجوك أن تجلسي.

لـــم تفعـــل السنوات الثلاث شيئا في ملامحها الحلوة، في وجهها المستطيل قليلا، في جبينها الطلق وبشرتها الصافية، تان شـــفتاها المـــصورتان على شكل زنبقة مفتوحة البتلات تدعوان إلى عالم من النعيم، وشعرها هو ذاك، لم تعد تصبغه بالكستناء فظل حبيس الليل. أمسك يدها وقال بصوت مرتعش النبرة:

- لم يعد يربطني بهم شيء، لقد وقعت على ذلك والتزمت به، علي الآن أن أرعاكم، أنتم الآن كل التزامي وحزبي.

وظلـــت صـــامتة، يـــدها في كفه وهي مطرقة، لا شيء يـــساوي احتضان ذلك الوجه وتخليل ذلك الشعر وشرب عبيره. قال لابنته وهي واقفة ترقب:

- أرجوك سناء أريد شربة ماء.

وقدمت إليه قلة صغيرة. قالت زوجته:

- الماء على غير ما تحبّ، لقد بعنا الثلاجة لنأكل.

قالت:

- لقد غبت إلى حيث لا نعلم... سألنا كل شيء، الناس والحجارة والشجر.

قال في شيء من الحدة: لم أرتكب جرما... سجنت للسبب الذي تعلمين.

ونظر إلى البرعمين في صدر ابنته ولانت قسماته، ونظر إليها... لابد أن أستقر الآن..لم يعد من التزام غيركم.

بعد يومين من الريب زال التوتر والتحفز، وجرى إليه الأطفال يركبونه ويتصارعون على النوم عليه، أروه دفاترهم المدرسية وأطلعته سناء على إنشاءاتها ورسائلها إليه، رسائلها التي ظلت حبيسة محفظتها، وأرته رسما وضعته له من صورته في ذاكرتها ومن استحضارها لأوضاعه المختلفة كاتبا وقارئا ومدخنا.

وفي الليل تسلل منهم إلى غرفته: الدولاب الكبير عوّضته خزانة صغيرة والمرآة على الجدار تكدّرت وخلطت الأشباح، رأى وجهه أشكالا مقعرة وكدمته حول عينه اليسرى ازدادت مساحتها... لكن الغرفة مافتئت مكتنزة بكل نتوءات الذكرى والعلامات المضيئة من خلوات الحبّ الأولى... كان الفراش في

غيــر هــذا الموضـــع، وكانت هنا فسحة من سجاد كنا نهجر الفــراش إليها حين يصل الغرام درجة تتجاوز المعهود وأطره وأدواته... الذكرى ناصعة كيومها الأول، لكن الزوايا معتمة... زوايا كل شيء معتمة.

وبــادر يــضطجع ويــرقبها تفعل حركاتها تلك البطيئة المحــسوبة كالــصلاة... وبدت في النهاية غلالتها في ازرقاق الحبــر المعتّق... ودفعت بجذعها ململمة شعرها ثمّ جمّعته، ثم بــدا لهــل أن تطلقـــه... ثم تعطرت واضطجعت إلى جانبه... تــسللت ذراع كسلى فأطفأت الفانوس، وللتوّ حضرت الزنزانة بخـــرائط الرطوبة على الجدران والسقف والحشرات التي "كأن بها حياء" والقوارض الضخمة الناجمة من فتحات المراحيض... قال برجاء وإلحاح ثم في حدّة صارخة.

- أرجوك أضيئي !

وزحفـــت إليه، أدخلت رأسها تحت ذراعه واستندت إلى صـــدره كمـــا كانت تفعل في الليالي المضيئة... وضعت ساقها علـــيه وبدأت تقبله قبلاتها تلك الخفيفة الرطبة ونشطت حواسها وانساب الظمأ الطويل في الطلب.

أزاحها بلطف وتصميم... حسابات عديدة يجب أن تحسم، صـــدوع في الداخل يجب أن ترأب... غراء كثير يحتاج لترميم الهشيم ولمّ المشتت.

وبلغه نحيبها وسالت سخونة على صدره، قال:

- أرجوك حبيبتي ! أحتاج إلى وقت لأتعود... لأعود...

واستمر دفق الماء الساخن على صدره. لكن شعر برأسها يــثقل وأنفاســـها تنـــتظم وذراعها تتشبث به ونامت كما طفلةٌ ومـــضى هو ساهدا يرقب تكسر الضوء على وجهها محدثا بقعا مـــضاءة وزوايا معتمة، واقترب من وجهها... رفعه إليه قليلا يتلقى زفيرها.

كشف الظنون

تمرّ على دراجتها أمام المقهى المليء بالآهات والكلمات المحظـــورة والمفاهيم المُثقلة، تنظر في فتحة قميصها في إطار ما يفهمه الناس على أنه خجل أو حرج أو هروب.

تنظـــر إلـــى صدرها يتقدمها، يفتح لها في الهواء منفذين بينهما برزخ يتخذه الهواء منتهاه أو مهربا من مقاومتها.

فـــي المقهـــى المليء بكل ما هو حبيس ومغلق: القارئ ينـــزع عـــن أنفه نظارته والشارب يعبّ من شرابه بلا استواء والمـــدخن يغلق الرئتين... وتقوم المفاهيم والكلمات في الحلوق والرؤوس ويحدُث ما يشبه انغلاق السبل.

وحده الشاعر الهامشي الطليق يحدس بمكان الفراغ الذي أحدثه مرورها...وحده يعرف السبيل إلى ما ليس إليه سبيل.

الولادة القادمة

رآهــا تحمــل كــتابا في كفها ونظراتها تمسح السيارات وتقفــز بــين المــارة المتجولــين في المساء الفاتر على ساحة الإســبلناد فــي مدينة الحمامات...رآها تقترب من بائع البوب كورن ثم تجلس على السور الحجري المحاذي للشاطئ..تضع حــذاءها إلى جانبها وتدلي قدميها في الرمال الرطبة تقرأ حينا باهــتمام بالــغ و تــسرح البــصر إلى سفينة شراعية أو تتابع بهلوانات النوارس المتطايرة على صفحة الماء أو المحلقة شاهقا حينا آخر. أهي تفكر في تقرأ؟

جلس قربها وسلم بصوت متردد.

تفحّــصته منزعجة، ثم تفحّصته متسائلة، ثم أنست به لمّا طابقــت بين وجهه والصورة الموضوعة على الصفحة الأخيرة من الكتاب.

فاجأهمــا المــساء... نزلا السلم الحجري إلى الرمل... وســارا بمحــاذاة الماء لايعبآن ببلل ملابسهما وهو يحدثها عن كتابه القادم.

الغجر ينشدون أقوم المسالك

ها أني وزوجتي وابنتي نجول بالسيارة في الأزقة والمنعطفات في هذا الحي الواسع الذي يطلقون عليه "حومة الحبش".

أترجل من حين لآخر لأزيل من الطريق صفيحة قمامة أو رضيعا تسمر في مكانه لا يروم التحرك ولا يعبأ بالخطر... نتوقف أمام الدكاكين وبائعي الفحم والسمك نسأل عن منزل معروض للكراء.

تفكَّرَ صاحب عربة لبيع الفاكهة حينا من الوقت ثم صحبنا إلى منزل قريب طرق بابه ولم ينتظر جوابا بل دفع الدفة المواربة وهتف بمن في الداخل:

- محرزية ! موش عندك دار للكراء؟

أقبلت علينا من مكان خفي امرأة نصَف فرحبت بنا وهي تزيل عن ذراعها بقايا مستحضر منزلي لإزالة الزغب، فداعبت البائع وضربت كتفه، واصطحبتنا في ممر مظلم بعض الشيء فيه ماء آسن وهو يفضي إلى بهو غير مبلط تنبعث من جانب منه رائحة المراحيض وتطل عليه غرف تآكلت أبوابها وطار عنها طلاؤها... ولجنا هذه الغرف واحدة فواحدة ثم وقفنا أمام

واحدة بابها موصد... حاولت زوجتي أن تدفع البرزخ فبادرتها صاحبة البيت:

- هذيك مغلقة... فيها دبش(*) أخي مسافر في إيطاليا.

نظرت إلي زوجتي نظرة ذات مغزى فهي تعرف موقفي من احتفاظ رب البيت لنفسه بغرفة في البيت المسوغ وتدرك خوفي من تكرر تجربة آدم في الجنة لما قال له ربه ولزوجه ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾.

تجد زوجتي لذة في تعذيب صاحب البيت المعروض للتسويغ وترى في ذلك تعويضا عمّا يلحقها من أذى الترحال وتهشم الأغراض وفساد الدولاب وضرورة تعديل الستائر على مقاس نوافذ البيت الجديد، فلا تتورع من استنقاص البيت المعروض وتهمس لي كلاما يزيد من حيرة صاحب البيت ثم نقول له:

- نفكر في الأمر ونرجع.

ونعود من جديد إلى السيارة والنسوة يطللن علينا من النوافذ أو يتهامسن علينا، ونقف أمام أحد دكاكين المعاش ونسأل صاحبه عن مسكن معروض للكراء.

* * *

البيت الذي اهتدينا إليه يحتل موقعا وسطا بين الجسر المتحرك ومصنع التكرير.

في البداية كنت أتوقع أن يعاملني السكان معاملة الغرباء، لكني فوجئت بالنساء يحيينني بلا حرج وبتلاميذي يعينون على إنزال الأغراض، فانتابني إحساس من طوّف بعيدا وعاد إلى وكر قديم.

الأغراض مكدسة منا وهناك، أنزلها حمّال عجلٍ ووضعها التلاميذ بلا خبرة، فاختلطت المواعين بالملابس والكتب بالصحون والمحابر بأحمر الشفاه وزجاجات العطر بقطع الفحم...وحاجاتنا ضائعة في هذا الخليط، فأصبحنا ننتقل في البيت زاحفين على الفساتين والملاءات والأغطية قافزين فوق ديوان أبي الطيب متجنبين المشي على "أقوم المسالك".

* * *

بيتنا في ناصية الزقاق، وبه تمرّ سبيل عريضة يصب فيها الجسر ويأخذ منها أحماله من الراجلين وذوي العجلات ودافعي العربات، وتربط بين المدينة وجملة من الأحياء الواقعة على الضفة الجنوبية لقناة بنزرت.

أمـــام بيتـــنا ينتصب فانوس على عمود طويل " كصاري مركب كبير" وبه نقطة ارتكاز كل حومة الحبش، يجتذب العمود الــصبايا قبيل الغروب، فيقعن عليه كسرب السنونو ويبذل لهن قاعدتـــه العريـــضة، فيجلسن على أطرافها ويستندن إلى جذعه القـــوي يـــتحادثن بأصـــوات كالحرير ويرقبن المارة ضاحكات العـــيون ويتبادلن الأسرار وحديث القلوب... ويفزعهن الغروب فيخلـــين المكـــان للـــشبان فيعكـــرون الصفو بأصواتهم الفجة وبـــذاءاتهم ودعاباتهم السمجة، يتعلمون تحته التدخين والكحول ويعبـــثون بالسكارى المترنحة ظلالهم على الجدران الواطئة أو يضلونهم سبل العودة إلى دورهم... فيسهد المرء في انتظار أن يخلـــوا المكان... لكن لا يلبث أن يستيقظ في غبش الفجر على نقـــر أقـــدام الـــصبايا وضـــحكاتهن الرفيعة وهن يمضين إلى العمل... ثم تعلو أصوات الباعة الجوّالين ونقاش الأسعار بينهم وبين ربات البيوت، وينقلب هدوء الزقاق إلى نوع من الخبل.

***

حـــين يـــضيق نفَس المتوسط من جهة صقلية ويمج نحو بنـــزرت ســـحبه الداكنة محمّلة برائحة مصنع الزيوت الخانقة ينـــتاب الحـــيّ إحساس ثقيل بالقلق، ثم لا يلبث أن ينصبّ على المدينة مطر ساخط يصفع الناس والحجارة والحديد، ويتعكر كل

شيء إلا وجه القناة... يظل طلقا لا مباليا بارتطام الريح المؤلم بضلوع الجسر فوقه وبصوتها الشبيه بالعويل.

أمـــام بيتنا تنسد البالوعة بما يحط السيل من عل، فيمتنع الـــزقاق، ويداهم الماء بيت جارتنا، فأخف إلى الخشب وأمدّ لها على اللجة جسرا... تأخذ طستا وأوعية وتنادي رفيقاتها فيكشفن عـــن الـــسوق ويخضن معي في اليمّ... يملأن الطست بأكفهن المخـــضبة، فأحملـــه وأفرغه في المصرف الرئيسي ونعود إلى ملئه حتى يغيض الماء ويقضى الأمر، وتبقى في القلب ذكراهن مختـــزنة، بـــشعورهن المهفهفة وريحهن الطبيعية المتغلبة على رائحة الزيوت والأوحال والعفونة المنبعثة هنا وهناك...فيكتسب الطوفان طعم المهرجان.

* * *

بدأت علامات من السواد ترتسم على الجدران، ثم ظهرت قطـــرات مـــاء متلألـــئة تلتصق بالسقف ثم تسقط بثقل في إناء أعتدناه لها. قالت زوجتي:

- أرأيت لو تركنا أغراضنا معبأة في علب الكرتون؟

قلت:

- لــم نتعلم بعد سنين الترحال بين غرب البلاد وشرقها كيف نحزم الأمتعة ونفرغها بأقل مؤونة من الجهد والوقت.

اتفقـت مـع صاحب العربة أن يأتيني قبيل العشاء، قبيل سروح من جعلوا الليل معاشا.

ولمـا دخـل وجـد علـب الكرتون مكتوبا عليها أسماء محـتوياتها، وبـدأ ينقل أجزاء الدولاب أولا والخزانة ورفوف المكتبة إلى البيت الجديد، فجمعت الأجزاء ووضعنا كل علبة في الرف المخصص لها، وما هي إلا سويعات حتى كان البيت تام الترتيب.

قالت زوجتي راضيةً:

- نستطيع غدا أن ننتقل إلى بيت آخر لو أردت، فالمتاع جاهز.

ابتسمت "في أسى وجمود" فبيتنا الجديد يقع في قعر زقاق لا يقـصد إلا لذاتـه، ونافذتـي ستبقى طول إقامتنا هنا مقفرة مهجورة لا يعبرها حفيف همس ولا نقر أقدام.

وبدأت أترصد السقف أترقب ظهور القطرات المتلألئة.

1989

الشمس في يوم قائظ

بـــدأت الـــشمس منذ فترة تبكّر في الطلوع كما لو نبا بها المـــضجع، وتفـــاقم نـــورها وسطع واشتد تحديقها في الأرض تتعـــرّف الأشـــياء كالمستفيق من الذهول: ذاك الحقل الذي كان للنـــسيم في شعره الأخضر عبث ودبيب قد بدأت خضرته تبهت قلـــيلا قلـــيلا وتميل إلى البياض، حتى إذا أسعفه المساء "غطّى المشيب بالزعفران"... وفي سماء الحقول أطالت القبرة رفرفتها واستطال تحليقها... نقطة صغيرة سوداء في بحر النور المبهر.

فـــي ضـــيعتنا بـــدأ الحديث عن موسم الحصاد وتوقعات الصابة وطاقة الخزن وعن الآلة الحاصدة الدارسة وسائقها وعن الجـــرار والمجرورة وعن المكان الأمثل لتكديس الهشيم والوقاية مـــن الحـــريق ومن الأمطار الصّيفية المباغتة... وما لبث حديث الفلاحين أن استحال عملا... فهذا ناظر الضيعة قد جلس في ظل شـــجرة وارفة إلى منضدة عليها أوراق وإلى جانبه، على مقاعد خـــشبية، جماعـــة مـــن الفعلة يشربون التاي الذي يقدم إليهم بين الحين والحين وهم أبعد ما يكونون عن الدعة والخمول، يتبادلون الـــرأي ويقلـــبون الأمور وربما احتد بهم الجدال... وما لبثوا أن

انفضوا كل لما نُدب له من الأشغال، فهذا يتعهد الحاصدة الدارسة، يشغل محركها فيتلكأ في الدوران، فيعلم بلا تردد أن العمود بحاجة إلى مزيد الشحن فيوصلها بعمود الجرار ليدعم طاقتها وهذا المحرك يدور حينئذ ويرسل بزخات الدخان سوداء أولا فبيضاء كسحاب قزع، وإذ يطمئن إلى المحرك والدواليب المسننة الموصولة به ينهمّ بالموسى، يحرّك شفراتها القاطعة ويدير المروحة التي تقرّب سوق السنابل من القواطع... وهؤلاء نسوة انكببن على تهيئة فضاء الخزن بوضع مسطبات خشبية على الأرض بعد طلائها بالجير للقضاء على الأرضة ويفتحن النوافذ لتبديد ما قد يكون علق بالجدران من الرطوبة.

بعد أسبوعين نضج السنبل وصرت إذا أخذت سنبلة وفركتها بين كفيك ألفيت القش جافا واستبانت لك دون عناء حبات القمح حتى إذا عجمتها بأسنانك وجدتها صلبة لا رطوبة فيها... لقد آن للحُصّاد أن يشرعوا.

ارتفع الضحى قليلا وبددت حرارة الشمس رطوبة الليل، في مثل هذه الساعة تنشط في الريف كائنات تلجمها الرطوبة ويخرسها الليل، فهذا صوت الهدهد قد عاد لتوّه من سبإ بنبإ عظيم، وهذه الجنادب التي استكانت إلى الهدوء بعد أناشيد الليل

تــزهيها الهاجــرة فتــتم ما بقي عليها من التراتيل.... وتهادت الحاصــدة الدارســة باتجــاه الحقــل وقد ارتفع الضحى يتبعها جــراران واحــد يسحب مجرورة لنقل الأكياس المعبّأة والآخر شدت إليه آلة ربط الحصيد.

في السرادق المنصوب على حافة الحقل جلس الناظر إلى مائــدة مــستديرة وهو ينقر بأصابع نشطة على لوحة المفاتيح لحاســوب نقــال غير مكترث بما حوله من الضجيج... فهناك الأصوات المختلطة القادمة من بعيد: صوت خوار يمتزج بثغاء خروف وتنادي العمال وهدير آلة يقترب إنه الجرار عاد محمّلا بأكــياس القمح.. وفي الداخل يضج النسوة في تهيئة وليمة تعَد استبــشارا بالموسم وبالمحصول الوفير..وفي ركن قصي مائدة ضــخمة علــيها مــوقد وأســطوانة غاز وقدور وجفان وكيس كسكــسي ووقفــت الحاجـــة نجمـــة الدّريدية وقد لفت شعرها المخــضب بمــنديل وإلى جانبها ابنة أختها محجوبة تشد أزرها وتشركها في أمرها.

تــوقفت سيارتان ونزل منهما أسرتان هما لناظر الضيعة ولــصاحبها... وقد حجبت النساء أعينهن بنظارات سوداء اتقاء الــضوء الباهــر فأصــبحن هــن الباهرات بروائهن وزينتهن

وملابسهن المزهرة الخفيفة وشعورهن المرسلة أو المجمعة على الأقفية الكاشفة عن رقاب بيضاء تطوقها قلائد الذهب...

تقدمن في خفر أو ربما في استعلاء فسلمن باقتضاب على من كان بالسرادق من النساء، ونظرن في بعض الحيرة يبحثن عن مكان للجلوس فلم يرين سوى بساط وضع على الأرض وعليه حشايا الإسفنج فوقها لحاف نظيف، وفي أماكن أخرى بسطت جلود الخرفان. وكان الحرج كل الحرج من جلوسهن على الأرض وما يقتضيه من انحسار التنانير عن سيقانهن وهي ملابس لا تصلح إلا للجلوس المرتفع على الأرائك والكراسي وما شابه.

وجاءت زوجة الناظر فهمست له شيئا فنظر ثم فكر وقدّر وأشار إليّ، قلت:

- حسنا.

ونهضت إلى الشاحنة فأدرت المحرك ولويت المقود عائدا إلى الضيعة البعيدة نحو ثلاثة أميال... وما هي إلا أن سمعت صفيرا فنظرت في المرآة العاكسة فإذا بالناظر يلوح بيده أن انتظرْ، وإذا بثلاث من البنات يحاولن اللحاق بي والمشي لا يستقيم لأقدامهن اللطيفة ونعالهن الرقيقة.

انتظرت حتى أدركنني وفتحت لهن الباب فتسلقن ونظرن المقعد مسودا بالشحوم فعفن الجلوس لكن لم يجدن منه بدا وجلسن حولي متراصات وسرعان ما تبددت رائحة الزيت الثقيل وضاع من شعورهن أريج كالخزامى في رائحة أخرى هي رائحة جسد أنثوي نظيف له أريجه الطبيعي المحمل بروائح النفس البعيدة في الأعماق...

وتهادت الشاحنة في الأحراش مضطربة خافضة رافعة وأجسادنا داخلها مختلطة متماوجة واحتكت الساق بالساق وعشت الأحداق ورفرفت أسئلتهن الساذجة وسألنني، قلت:

- أنا مهندس الميقانيقا.

وصلنا الضيعة وهدأ اضطراب الشاحنة وبدا لنا سيدي المؤدب جالسا أمام كتّابه وقد سرّح تلاميذه أبناء العمّال.

ذهب البنات فسلمن عليه ثم نظرن فطالعهن حوض كبيرُ فيه إوزات يسبحن وفوقه حنفية كبيرة فأردن أن يتبرّدن فذهبت إلى المضخة فانبثق ماء دافق فخففن إليه ولم ينفرهن الإوز فاختلط بهن، فعابثنه وسررن به سرورا وكشفن عن النحر والذراع والساق وحملن الماء بأكفهن إلى وجوههن وشعورهن وسيقانهن.

وعـــدت أنا أقف عند المؤدب وأنا أنظر إليهن يرفعن الماء ويتراشقن به ويتصايحن في فزع كذب.. وفي تلك اللحظة جاءت مـــن خلـــف مبنى الكتاب فتاة هي ابنة المؤدب فتفاجأت بوجودي وحيتني على استحياء وقدمت كأسا من التاي لوالدها واقترحت أن تأتينـــي بكأس فشكرت واعتذرت وكنت إذّاك منشغلا بالنظر إلى الحوض. ولما انصرفتْ سمعت المؤدب يقول:

- حـــسن الحضارة مجلوب بتطرية * وفي البداوة حسن غير مجلوب.

عـــاد البـــنات مـــن الماء فانشغلتُ بأمرهن ومن يتنفضن ويتنشّفن وقد شغت عنهنّ المرقّقات بالابتلال فهن كالشموس من خـــلال السحاب وفتحتُ لهن باب الشاحنة فركبن وهن في بقايا عبث ودلال وأدرت المحرك فقال المؤدب وهو يحاورني:

- ألا تخشى أن يقال عنك زوج الإوز؟

لم أفهم مقالته فتجاهلت.

أتـــم عامـــل شحن أريكتين وكراسي وعدنا إلى الطريق المـــضطربة وقـــد انـــضافت إلى الغرفة ريا جديدة هي رائحة الأرض البكر يغشاها أول المطر.

ولما وصلت الشاحنة إلى السرادق أنزلت الأرائك والطنافس والكراسي واستقرت النسوة واطمأنن ثم وصل الجرار محمّلا بأكياس القمح.

وكان وصوله إشارة إلى الخالة نجمة ووزيرتها لتطلقا الزغاريد و لتنشطا في إعداد الوليمة، فضاعت رائحة الكسكسي وهو يضمّخ بالمرق ووقف الناظر أمام السرادق فأشار بالحركات للعمال أن توقفوا لاستراحة الظهيرة، فهمدت المحركات وفي فم الدرّاسة سنابل لم تدرس. وتوافد العمال على

السرادق في فذلكة ودعابة وتدافع وأقبلوا على صفائح الماء يغتسلون ويتبرّدون ويزيلون ما علق بشعورهم وأهدابهم وشواربهم من دقيق الغبار، وتمددوا على الأرض ينتظرون الدعوة إلى الطعام

ويتطلعون في خفر واستراق نظر إلى النساء.

وُضعت على الأرض ثلاث جفان بها كسكسي عظيم عليه جزر من اللحم منتثرة عليه حبوب الحمّص وقرون من الفلفل، وأعلنت الحاجة نجمة تقسيمها الإداري للجفان: واحدة للرجال وهي الأكبر، وثانية للنساء وثالثة للأطفال، وأقبل الرجال على الجفنة بنهم وخشونة، أما الوافدون من المدينة فبتحفظ وحذر

واعـــتدال.... وما هي إلا أن طاف على قصعة الرجال طائف فتصارعت الملاعق على الثمالة وتسربت منهم نظرات مسترقة خائنة حاسدة إلى قصعة النساء لم يصبن منها إلا القليل وتفطنت سـيدة إلـــى الأمر فأمرت الحاجة نجمة أن تفئ عليهم مما بين أيـــدي النـــساء فقربت الجفنة الخاوية فأفرغت فيها من الملأى، وأعيدت إلى موقعها وصدرت الملاعق إلى الأفواه مشحونة.

بعـــد الطعام قاموا فاغتسلوا في آنية يعوم فيها قطعة من الـــصابون، ثـــم عادوا فتمددوا وأشعلوا السجائر وخللوا أسنانهم بـــالقش وتجشؤوا وتلمظوا وتذاكروا أمر العمل وتنبؤوا بأمطار الخـــريف المقبل وحللوا العلامات الدالة عليه واستبشروا.... ثم صـــمتوا وأغفى بعضهم وخفق رأس العابد العياري وكاد ينكبّ علـــى وجهه، فضحكوا منه، فاستفاق، ثم عاوده النعاس، فقرّب أحدهم قشة من أنفه يدغدغه...

في تلك اللحظة علا صراخ إحدى البنات وقفزت في هلع واحتمت بركن من السرادق وشاركتها رفيقاتها الفزع والصراخ ولذ ن بأماكن رأينها منيعة، وصرخن:

- حنش، حنش !!

اهـتم بعـض الرجال فقاموا وظل آخرون ساكنين غير مكترثين.

وخـف المخـتار بن بحري إلى رفش رفعه وجدّ يطارد الثعـبان الـذي طلب كومة قش خارج السرادق فاحتمى تحتها. رأيتُ عينيْ المختار تلمعان وعلى وجهه احتقان وعنف وفحولة وهـو يرفع الرفش يريد أن يهوي به على كومة القش. أمسكت ذراعه مرفوعة ودفعته بشيء من العنف والعزم وقلت:

- عطشان أجاءه العطش إلى حيث يتوقع الماء.

وبحـثتُ كـومة القش بيدي والنساء تجمهرن في مدخل السرادق ينظرن.

وتهيأ الثعبان للدفاع وقد أحيط به فرفع رأسه عن الأرض يـتابع حـركة يدي تشاغله وباليمنى قبضت على عنقه ورفعته فـتلوى والـتفّ على ذراعي وانبعثت من حناجر بعض النسوة صرخات حادة وما لبثن أن هدأن. قلت:

- آتوني قنينة ماء.

قالوا:

- لمه؟

حملت القنينةَ والثعبانُ في يدي يبحث بلسانه المزدوج في الهواء وابتعدتُ عن السرادق.

ولما عدت كان قد سكت عن النساء الهوّل ودخلن السرادق إلا ناهـــدا ظلت واقفة تحت الشمس كالمترقب أوبتي، نظرتْ إليّ وقد حمّلت عينيها معاني يحار المرء في فهمها... ودخلتْ.

ظـــل الجمـــع يخـــوض في حديث الحنش، وكانت ناهد تـــصوّب إلـــيّ بين الحين والحين تلك النظرات المبهمة بأشعة ســـوداء مـــن خلال أهدابها الطويلة المفروشة كحقل صغير من السنبل المكتنز... كانت في ظل السرادق متوهجة كالشمس في يوم قائظ.

وطافت محجوبة على الحاضرين بطبق فيه أكواب التاي الكثـــيف الثقـــيل القـــاتم مبتدئة بالرجال، فشربوا وأشعلوا لذلك سجائر حديثة.

عزم الحاضرون على مبروك البريكي أن ينفخ لحنا فتمنّع وهـــو الذي لا تفارق القصبة حزامه، وألحوا فاستعصم وأقسموا عليه فقاوم ثم انهار ونفخ.

ثم ارتفع صوت من النساء:

بالله يا حمد يا خويا * ياراكب العتيد

فجاراه المزمار والتقيا وسارا.

ولما وصل الصوت إلى القول:

هز الخبر وولي * لنجعنا دريد(*)

استعبرت نجمة الدريدية وحنّت وهشّت للتذكر ونما صوتها بالنحيب، وظلت ابنة أختها ترقبها مترطّبة الجفون ثم ناولتها منديلا فمسحت عينيها وتمخطت. ولاحظ الزمّار سلطانه على المهج فانتابه العجب وزاد في النفخ وأطنب في الاسترسال وأمعن في التموّج...

* * *

وما هي إلا أن طافت عليهم محجوبة بالكأس الثالثة وهي الأخف والأطيب، فشربوا ثم أغرقوا في الصمت إلا من نحنحة أو سعال. ثم تمطى سائق الحاصدة وقام وئيدا إلى آلته وتبعه الآخرون في بطء.

2007

(*) هزّ: احمل، ودريد: قبيلة عربية جاءت البلاد التونسية ضمن زحفة بني هلال سنة443 للهجرة واستوطن أكثرها مناطق من الوسط الغربي للبلاد.

اللعبة

ليس بالإمكان إدراك هذا الفرح الأخضر الذي يغمر كيانه.

المدينة ظهرت له أجمل وأنظف والشوارع أرحب والساحات.

تفطن فجأة إلى أن السنونو التي بنت بعشها الطيني في سقيفة البيت تُصدر شدْوا لا ضجيجا، وأن الحمامةَ على فرع غصنها المياد لا تنتحب بل تغني... كل شيء فرح وكل شيء حبور منذ أن عاد نجله الوحيد من أوروبا بسيارة صغيرة خضراء فستقية، تمر على الطريق خفيفة الوطء، صامتة كأنْ تحلق في الهواء، أو كأنْ لا محركَ في جوفها، تنساب بك وأنت فيها كما لو كانت تزحف على بطن ملساء.

تربض أمام البيت في سكينة، تزيّن كل الزقاق ويلتفت إليها المارة يمسحون على أديمها بأبصارهم وتتعلق بها أعينهم فتلتوي لها أعناقهم...

في الصباح، وأهل البين نيام يخرج إليها بخرقة مبللة، وبحركة خاصة يطرح الخرقة على أديمها فتلتصق به فيسحبها

مـــزيلة كـــل مـــا علـــق بهـــا من الوعثاء... حتى يتركها نقية صافية ألقةً.

ورحل الضيف العزيز تاركا رصيدا من الذكريات الحلوة ومن أمل في لقاء مقبل.

والـــيوم حـــين فتح المستودع البلدي ليأخذ عربة التنظيف الـــصغيرة فاجـــأه الـــرئيس بعربة جديدة نظيفة خضراء فستقية بعجلتـــين من المطاط... دفعها في الشارع فتدافعت, وجالت به في الطرقات لينة خفيفة منسابة.

توقـــف في إحدى الساحات، وجلس تحت شجرة يتملاّها ويـــتأمل بديـــع صنعها، ثم قام إليها والخرقة المبللة في يده... مـــرّرها علـــى أديمها بحركة خاصة وسحب، فجلا عنها كل ما علق بها من الوعثاء.

التفكك

الطوار من تحته يبعث إليه بوخزات باردة تنفذ إلى خلايا النخاع، والجدار من ورائه لزج، والعالم انحصر في معيّن منير هــو فــتحة طربوش الكشابية(*) السوداء. في عمق ذلك المعين جانب من الطوار وجزء من المعبد، وفي المركز مستنقع صغير من الماء الآسن، وعلى الضلع الأيسر مقدمة حذائه الرابض إلى جانبه "باسطا ذراعيه". قال في نفسه: "هو جديد متين، ولكن..."

ســمع نقــرا لخطو سريع آتيا من جهة الشمال، وما لبث المعــين أن امتلأ بساقين جميلتين يلفهما جوربان بلون الخبز أو بلون الرمال.

حــرّر ســبّابته المنغرزة في راحة يده، دفع الساعد إلى الأمــام قلــيلا، بسط الذراع في زاوية منفرجة، شهر سبابة من فتحة الكشابية بدرجة انزواء قدّر أنها تلتقي بمستوى وجه من قد تقــف أمامــه أو صدرها خلص لسانه من صمغ الريق بحركة مؤلمة، سنّ ذوْلقه وسدّده إلى الحنك، ملأ رئتيه بالهواء وضغط، وانبــرى لــسانه يتنقل في تجويف الفم بكسل، وألقى في الأثير

(*) لباس تونسي من الصوف.

بجملته التي حفظها عنه أهل مدينة طبربة كافة حين يقتعد مكانه تحت جدار مسجد اليعكوري:

- الله ينجيك ويبعد الداء عليك.

بدأ النقر يبتعد ويتلاشى (لماذا خلا الطريق المؤدي إلى المخبزة في هذه الساعة المبكرة؟)

تـــرك لسانه الحنك وانبسط في تجويف الفم، واستقر في خمـــول وخيبة، وارتدت الذراع دافعة بالساعد إلى الخلف حتى ارتطـــم المـــنكب بالجدار، وتقوّست السبابة وتقوقعت في راحة الكف.

الـــساقان الجميلـــتان تشبهان ساقي أمه في جوربين بلون الخبز أو بلون التراب... وسقط بصره على مقدمة الحذاء: " هو جديد متين ولكن..."

امـــتدت يمـــناه إلى جيبه تفتشه، ثم عادت يسراه بموسى صـــغيرة صدئة، شهر نصلها وجلس القرفصاء، سُمع صريرا، بعـــض المفاصل صدئةٌ، ونتأت ركبته حتى لامست ذقنه. أظفار الـــرجل طـــويلة، وعلى القدم سنتمتر من جلد يابس (لو أزلتها لأمكن أن ألبس الحذاء) وأوشك يبتسم.

اجــتمع فــي كفــه كدس من زوائده، ميتة يابسة كلحاء الــشجر. امــتدت الــيد إلــى الأمام في حركة مباغتة كالطعن بالسكين، امتد مداها إلى قلب المستنقع، وانقلبت الكفّ في حركة نــصف دائرية فأفرغ فيه الحمولة، دفع بجذعه إلى الأمام قليلا حتى جعل وجهه على المستنقع، طفت الأظفار، أما لحاء الشجر فتشرّبَ الماءَ فرسبَ وتفككَ.

كذلك شاهد جسدها لما جاءت سيارات كثيرة ومآزر بيضٌ وقبّعاتٌ لُمّعٌ وأسلحةٌ... كان يقيل هناك تحت سور الجبّانة غير بعيد عن قبرها، خال الأمر يتعلق بدفين جديد، لكن شاهد الحشد يــتوجه نحوها، نحو قبرها،وشاهد الفؤوس في الكلس والتراب، اقتــرب يــريد أن يــسألهم، كانــت وجوههم باسمة وجباههم مسترخية، ثم ما لبثوا أن وضعوا كمامات على أفواههم وأنوفهم وهــو يشرئبّ بوجهه داخل القبر المفتوح يريد أن يرى جسدها عاريا كما رآها ذات فجر في حضن زوجها الجديد... كان يريد أمــه، يــريد أن يقول لها شيئا، وفاجأهما، ثار الرجل وضربه وأطــرده مــن البيت، فأقام في هذا الركن من الجبانة، في ذلك الــيوم أحب أمه كثيرًا (كيف يمضي كل هذا الزمن ولا أعرف ذلك الجسد الذي بلون الخبز أو بلون التراب؟!)

وعـــندما قـــيل لــــــه إن أمه تحدت قانون منع الجولان وخـــرجت تـــبحث عـــنه فأرداها العسكر، شرب من مستنقعات المديـــنة وجـــرى فـــي أسواقها وساحاتها عاريا وسبّ سادتها وســـوقتها وغطـــى نفسه بالقمامة وأقام في البطحاء مأتما كان فرجة وظل حديثا...

عندما أطل رآها ممدة، رأى بعض الجسد منتثرا يتشرب الماء ويتفكك.

ضـــغط بمرفقيه على الركبتين ودفع بجذعه إلى الخلف، فارتطم بالجدار واستقر عليه وبدأ ينزلق،خفف سرعة الانزلاق حتـــى لا تصطدم عجيزته اصطداما عنيفا بالأرض، لكنْ باغته نقـــر القدمـــين علـــى الإسفلت، إنه ذات الوقع، صاحبته أخذت طـــريق العـــودة، الوقت يباغته، حرّر سبابته، دفع الساعد إلى الأمـــام قلـــيلا، بـــسط الذراع في زاوية منفرجة، جعل الإصبع مـــصوبا نحـــو الـــوجه، ثم رأى أن يغيّر زاوية التصويب نحو الـــصدر، ســـنّ ذولق لسانه وملأ الرئتين، وحبس النفَسَ وركز البصر على المعيّن.

وغمرت المعيّن الساقان الجميلتان.

ضغط، وقذف:

- الله ينجيك ويبعد الداء عليك...

ورأى من الزاوية العليا فوهة رغيف يصوّب إلى قلبه...أحس بموجة رعب تغمره، ثم سيطر على مشاعره وارتفعت يده تأخذ الرغيف والنقر يبتعد.

بإمكانه الآن أن ينصرف.

وضع الرغيف معامدا لفخذيه، (يمكنني الآن أن ألبس الحذاء بلا ألم) تقدم بجذعه إلى الأمام قليلا ثم دفع به إلى الوراء في حركة سريعة مباغتة فارتد إلى الأمام ووجد نفسه قائما على ركبتيه وقدماه وراءه. في تلك الحركة السريعة تدحرج الرغيف واستقر في المستنقع.

بقي قائما يحدق فيه...ثنى ركبتيه فوضع مؤخرته على قدميه وجعل وجهه على الرغيف الغارق يتشرّب الماء ويتفكك.

حشر قدمه السليمة في فردة الحذاء، وحمل الأخرى، ومشى وئيدا يجر الساق الضامرة باتجاه المقبرة.

1998

المؤلف

تونسي مولود في السادس والعشرين من يوليو سنة 1954 بطبربة المدينة الأندلسية الواقعة على ضفاف نهر مجردة غير بعيد عن العاصمة تونس.

درس الثانوي بالعاصمة والتحق بجامعة تونس حيث درس الآداب العربية ونال منها الأستاذية (البكالوريوس) 1979 وفي الآن نفسه كان يتمم دراسة اللغة الإيطالية التي بدأها في الثانوي، وحصل على شهادتها ثم على الشهادة التمهيدية للدراسات العليا.

وبعد انقطاع عاد إلى الدرس فحصل من جامعة سوسة على شهادة الدراسات المعمقة (أو ما كان يعرف سابقا بدكتوراه الحلقة الثالثة).

نشط في الحقل الثقافي محاضرا ومترئسا لندوات ومشرفا على نواد أدبية بكل من بنزرت ومنزل عبد الرحمن وسوسة.

نشر إنتاجا متنوعا في الدوريات والملاحق الأدبية التونسية.

نشر مؤلفين: مقاربات نقدية عن دار سعيدان بسوسة (1994).

و أهداب النخل: دراسات في أدب الروائي التونسي بشير خريف عن دار سيبويه بالمنستير (2007).

وقد تعاقد مع نفس الدار على إصدار خمسة مؤلفات أخرى بين النقد والترجمة والرواية.

ويمارس المؤلف الترجمة من الفرنسية وإليها وأنجز في هذا الصدد:

- الجنون والحضارة لميشيل فوكو: سيصدر عن دار سيبويه.
- البنيوية والتحليل الأدبي لميشيل فوكو أيضا سوف يصدر عن نفس الدار.
- النهار والليل: تعريب لديوان الموسيقار الملحن التونسي محمد الجموسي، سيصدر عن دار سيبويه أيضا.
- ترجمة إلى الفرنسية لديوان الشاعرة التونسية راضية الشهايبي سوف تصدر يالكيباك بكندا.
- ترجمة إلى الفرنسية لمختارات من الشعر التونسي الحديث لم يتعاقد مع أي ناشر في شأنها.

وللمؤلف كتب أخرى ناجزة غير منشورة في النقد والقصة والشعر.

الفهرس

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

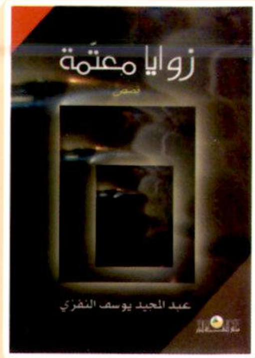
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام